تحقيقات نوح الألفي

الكتاب: تحقيقات نوح الألفي

رواية

ميرنا المهدي

الطبعة الأولى 2018

تدقيق لغوي- تنسيق داخلي:

سُكونْ www.sekoon.com

رقم الإيداع: 2018/23229

الترقيم الدولي: 978-977-6667-71-1

الناشر: السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام: لمياء السعيد

36 شارع عبد الحميد الديب بجوار شركة القاهرة للأدوية شبرا مصر برج الهادي.

0222017260
01550096215

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

ميرنا المهدي

تحقيقات نوح الألفي

رواية

السّعيد
للنشر والتوزيع

المحتويات

القضية الأولى (الفَتِيل) 11
القضية الثانية (كريم كراميل) 97
القضية الثالثة (ست الحسن) 159

إهداء

إلى أمي التي أمسكت يدي وعبرَتْ بي الطريق..

وإلى مايا شقيقة روحي ورفيقة دربي..

ولكل من ساندني، وكل من علَّمني حرفًا، وكل من أحبطَني يومًا ..

ليس كل ما هو حقيقي ، منطقيًا . .
وليس كل ما هو منطقي ، حقيقيًا . .

القضية الأولى

(الفَـتِـيل)

(1)

سأخبرك ثلاث حقائق عن نفسي..
أولهن أنني أُدعَى نوح.
ثانيهن: أنني أصبحتُ ضابطًا بالمباحث الجنائية تأثُّرًا بالمحقق كونان.
أما عن الحقيقة الثالثة، حسنًا.. سأعملك بها في الوقت المناسب.

***

بحلول الساعة الخامسة صباحًا، بدأت أتثاءب وأفرك عيني في محاولة يائسة لصرف شبح النوم الذي خيَّم على حتى دخل قطز المكتب بقامته الطويلة وشعره الكثيف وأنفه البارز وقميصه الأبيض الذي لا يعرف له الغبار طريقًا.

اقترب من مكتبي بضجته المعهودة، متلهفًا للانقضاض على الفطور الساخن الذي فاحت رائحته من الحقيبة البلاستيكية المتخمة بالفول والطعمية والمخللات المتكومة في أوراق مشبعة بزيتٍ لا يعلم مصدره سوى الخالق.

نحَّيتُ الملفات والدفاتر جانبًا ثم نشرتُ صفحة من جريدة الأمس

على المكتب لتكن عازلًا بين البقع التي ستخلفها مجزرتنا الصباحية وبين الخشب الداكن.

– سنة عشان تجيب الفطار يا قطز؟

فكَّ الأكياس وبدأ رصها بعناية وأجابني دون أن يرفع عينيه عن الطعمية:

– الرائد زفت عطلني.

– صلاح؟

– هو فيه غيره، برزالة أهله دي!

انكبَّ على الطعام وطارت أصابعه بين الأطباق كالصقر ملتقطًا قطعة من هنا وهناك بينما ركزتُ على الفول بالكمون والليمون حتى مر الفرَّاش المُسِن بالطرقة فناداه قطز بحماس:

– عم حمدي، الكاكاو بتاعي والنبي.

– عيوني، يا باشا.

أكمل الفرَّاش طريقه محييًا باقي الضباط المتوافدين على القسم والمتجهين لمكاتبهم بينما قلتُ:

– كفاية كاكاو بقى.

– بقولك إيه، مش إنت وأبويا عليَّا. كلكم باصين لي في كوباية الكاكاو.

دخل الفراش واضعًا الكاكاو والماء فالتقط قطز الكوب قائلًا:

– الله ينور، ما تيجي بِاسم الله.

– بالهنا والشفا، يا بشاوات، أي خدمة؟

– شكرًا يا عم حمدي.

رحل الفراش مع دخول الرائد صلاح الشُبكي برائحة عطره الرخيص وقميصه الفاقع وسرواله القماشي الذي ورثه عن أجداده وشاربه الذي انتهت صيحته بانتهاء الثورة العرابية.

وقف عند الباب قائلًا بصوته الذي نبحه المعسل المغشوش:

– البشوات متزفلطين في الفول والطعمية وسايبين الناس تدبح في الشارع.

أكملت طعامي ولم ألتفت له، ولكن قطز أجابه معترضًا

– ناس مين؟ إحنا مرزوعين طول الليل وماجلناش بلاغ واحد.

– أومال إيه البت اللي اتقتلت في ميدان طلعت حرب دي؟

التفتُّ إليه وسألتُه ببرودٍ: بت مين؟

– اتفضلوا قُدَّامي واحنا نعرف بت مين.

أكمل قطز طعامه قائلًا: روح أنت، إحنا نبطشيتنا خلصت.

ربَّع ذراعيه القصيرين وقال بإيقاع سريعٍ:

– المادة 41 من القانون 109 بتنص على إنه يَجوز تكليف الضابط بالعمل في غير أوقات العمل الرسمية علاوة على الأوقات الرسمية إذا اقتضت مصلحة العمل ذلك.. طبعًا، ما سيادتك ابن اللوا وداخلها

كوسة لا ذاكرت ولا مقفت عينيك في الكتب، جاي تاكل طعمية وتشرب كاكاو.

أخذ قطز نفسًا عميقًا محاوِلًا أن يتمالك أعصابه ثم همس لي قائلًا:

– هضربه في شنبه.

نفضتُ يدي قائلًا: إتّك ع الصبر.

***

يمكن أن تعرف الكثير عن القاتل من الطريقة التي اختارها لقتل ضحيته.

فمثلًا: مَن يستخدم الرصاص هو صاحب شخصية درامية ومغرورة وغالبًا ضحيته ابتزته أو استفزته ومن يستخدم الخنق هو شخصٌ يحمل الكثير من الضغينة والاستياء المتراكم صوب ضحيته وفي الأغلب دافعه هو الانتقام وفي معظم الأحيان يندم لاحقًا على فعلته، بينما من يختار السم فهو شخص جبان، ولكنه ذكي ولا يقوى على مواجهة ضحيته.

أما أسوأ نوع من المجرمين، هو الذي يختار الذبح، أشعر بالإهانة الشديدة عند رؤية شخصًا منحورًا كالمواشي كجثة هذه الشابة الجالسة في المقعد الأمامي لسيارتها خلف المقود وقد تجلطت الدماء حول عنقها الرفيع ومالت رأسها لليمين وارتخت يداها بجوارها وعيناها الخضراوان مفتوحتان خلف نظارة نظرها الكبيرة وشعرها البني معقوص لأعلى وعلى وجهها الميت ملامح الصدمة، لقد باغتَها القاتل وذبحها من المقعد الخلفي، ولكن يبدو أنه كان متعجلًا.

لقد خرج وترك بابَه مفتوحًا، كما أنه لم يكمل الذبح لآخره، فالجرح ينتهي عند ما بعد منتصف العنق بقليل، ولكنه كان كفيلًا لإنهاء حياتها.

وقفتُ أتفحص منظر الجثة بالسيارة الحمراء مداعبًا تلك الليمونة التي أُبقيها بجيبي وأتلقفها بين أصابعي متخيلًا مشهد الجريمة، بينما انشغل قطز بتأمل البنايات الأثرية المحيطة بميدان طلعت حرب، خاصة عمارة جروبي، أما صلاح فقد بصق على الأرض كالحيوان ثم دعك أذنه بظفر إصبعه الصغير الذي يُطيله ثم تكلَّم مع عسكري المرور بتعالٍ:

– ها يا ابني.. مين اللي شاف القتيلة؟

– أنا، لا مؤاخذة، استلمت النبطشية الساعة خمسة ولاقيت باب عربية القتيلة لا مؤاخذة مفتوح، وفضِل يجي ساعة على ديك الحال ولما قربت عشان أشوفه، لا مؤاخذة، مفتوح ليه لاقيت البت مدبوحة جُوَّه العربية.

صاح صلاح بلا داعٍ: وانت أزاي ماخدّتش بالك إن البت مقتولة من الأول، يا ابني؟

– ما إزاز العربية، لا مؤاخذة، مفيّم أشوف إزاي؟

– هتتفزلك بروح أمك؟ ما تشوفوا شغلكم بقى.

أعلم أن العسكري قد لعن أجداد صلاح في سِرِّه، ولكنه وقف جانبًا بصمتٍ بينما لم ينزل قطز عينيه عن عمارة جروبي واضعًا يديه عند خصره فقلتُ له:

– فيه حاجة لفتت نظرك في العمارة؟

- تعرف إن العمارة دي، اتبنت سنة 1924.

نظرتُ للبناية الكلاسيكية ذات اللون الرملي والنوافذ الخشبية الخضراء والشُرف الواسعة وأعمدة الإضاءة الباريسية المحيطة بها ومقهى جروبي المغلق بواجهته ذات الفسيفساء الزرقاء.

ظلَّ "قطز" ينظر للبناية بتعظيم وهيبة وأكمل مشيرًا للمقهى:

- تعرف بقى إن في تمانينات القرن التسعتاشر جاكومو جروبي جه مصر مع ابنه وفتحوا الكافيه ده على الطراز الفرنساوي عشان...

- سؤال بس.. إيه دخل تاريخ العمارة بالبنت المدبوحة في العربية؟

التفت إليَّ قائلًا: ما صلاح بيعصر العسكري أسئلة وانت عمَّال تلف حوالين العربية زي النحلة قُلت أبص على العمايِر العريقة اللي الزحمة بتلهينا عنها.

قطز واحد من الكثيرين الذين أجبروهم أهاليهم على اختيار وظيفة تخالف طموحاتهم، فهو ابن اللواء أنور المحمدي وميس نجوي علوي مُدرسة التاريخ بمدرسة بورسعيد الدولية التي

تخرج كلينا منها وبينما كنتُ أطمح أن أصير ضابطًا مثل والدي الذي استشهد وأنا في العاشرة من عمري، قرر قطز أن يصير زاهي حواس الثاني بعد أن أسقته أمه عشقها للتاريخ الذي تجلَّى في اختيارها لاسمه "قطز"، وقد أعجب سيادة اللواء بهذا الاسم المنتقى فتخيَّل ابنه قائدًا وفارسًا وزعيمًا كسيف الدين قطز الذي حرَّر مصر من التتار فعاش قطز بين سخرية وتهكم الطلاب، ولكنه كان يقول إن كل العظماء لديهم أسماء

تدعو للسخرية وهكذا ظل يحلم باليوم الذي يكتشف به مقبرة عظيمة كإنديانا جونز في أفلامه وإذ ينتهي به الأمر طالبًا بأكاديمية الشرطة

منصاعًا لتسلط أبيه الذي حرمَه من طموحه، ولكنه لم ينزع عشق التاريخ من قلبه.

على الرغم من أن قطز أصبح ضابطًا بالإكراه، إلا أنه تفوَّق بالأكاديمية. فهكذا هو، يجيد أي مجال يدخله ويتقن عمله ويؤديه على أكمل وجه حتى وإن لم يحبه، فهو شخصية لن تجد الإهمال أو الاستسلام في قاموسها.

– وحياة أبوك، يا قطز. ركز عشان نخلص من صلاح.

التفت إلينا صلاح قائلًا بنبرة تهكمية:

– ها يا عسل منك ليه، تفتكروا مين اللي عملها؟

أعلم جيدًا أن صلاح لم يجلبنا معه حتى نشهد على الجريمة ونتعلم من عبقريته وعقليته اللامعة. لقد أحضرنا لنقوم بعمله ونعطيه استنتاجاتنا وأفكارنا، فقد اعتاد التسلق على أكتاف من هم أقل منه رتبة فيكفيك أن تعاشر ذاك الوغد أيامًا لتعرف أن مبدأه في الحياة "إن جالك الطوفان حُط ابنك تحت رجليك"، ولكني أذكى من أن أحل واجبات غيري بعكس "قطز" الساذج الذي أجابه مندفعًا:

– معظم اللي بيختاروا طريقة الدبح بيكونوا جرَّاحين أو جزارين أو قتلة مأجورين. وأنا برجَّح إن حد غني دفع فلوس لمجرم عشان يخلص من حد مضايقه، فما أظنش إن اللي دبح المسكينة دي جرَّاح؛ لأن مافيش جراح متعلم يعمل جريمة زي دي في العلن وسط ميدان طلـ...

قاطعه بضحكة ساخرة تجعلني أتمنى لكمه كي أسقط أسنانه الصفراء:

- بالعكس، ده مكان مناسب جدًا. الدنيا ضلمة وهُس هُس والعسكري متلقح نايم وعربية مفيمة، دخل دبح وماحدش خد باله.. السؤال هنا يا مبتدئ منَّك له، هو ليه الهانم المحترمة كانت في عربيتها المفيمة في نص الليل تحت بيت مش بيتها؟ البواب بيقول إن دي أول مرة يشوفها وإنها جَت على المغرب وطلعت العمارة وهو دخل ينام على نُص الليل وكانت عربيتها لسه راكنة. إيه اللي خلى الهانم تنزل بعد نُص الليل؟

وجهتُ له الحديث لأول مرة قائلًا ببرودٍ:

- تفتكر إنت إيه؟

ثبّت نظارة الشمس المضروبة على أرنبة أنفه قائلًا بفخرٍ لا يليق بهيئته.

- رأيي إنكم هواة. لو خدت بالك يا مبتدئ هتلاقي إن العمارة فيها بنسيون في الدور التالت، أكيد الهانم طلعت لعشيقها وقضت معاه ليلة ظريفة ماخلصِتش غير بعد نُص الليل جَه بقى عيِّل مرقع من بتوع سرقة العربيات وثبتها عشان يسرق العربية الغالية الحلوة دي فرفضت أو صرخت. دبحها وجري.. أنا هلم كل العيال المسجلين وأنفخ أمهم لحد ما يعترفوا.

لم أرَ تحليلًا أفشل من هذا.

ذاك الأحمق الذي يظننا هواة لم ينتبه لحقيبة الظهر الملقاة بالمقعد الجانبي ويخرج منها مسطرة هندسية كبيرة ولا يحتاج الأمر أن تكون شرلوك هولمز عصرك لتستنتج أن القتيلة طالبة بكلية هندسة وقد أتت

إلى منزل صديقتها وذاكرتا معًا طوال الليل ثم حدث أمرٌ ما جعلها ترحل، لا أعلم ما هو ولا يهمني معرفته، ولكن مما لا شك فيه أن من قتلها لم يكن غرضه السرقة؛ لأنه اختار المقعد الخلفي، وراء قائد السيارة مباشرة، مما يعني أنه يقصد الفتاة ولو كان يود الحصول على السيارة تحت التهديد لاختار المقعد الأمامي بجوارها أو لقتلها خارجها ليسهل عملية التخلص من جثتها ويقود السيارة فرارًا، خاصة أن المفتاح بالكونتاكت وأن الضحية ضعيفة البنية ومن السهل تهديدها أو ضربها أو التخلص منها بأي طريقة لا تتضمن ذبحها.

المجرم لم يرغب في فعل أي شيء سوى قتلها.

أنا أؤيد فكرة قطز، إن الفاعل قاتل مأجور، ولكن ما الذي يجعل طالبة جامعية ترتدي "كروكس" أحمر وكنزة مرسوم عليها "ميكي ماوس"، مصدر خطرٍ لأحدهم حتى يدفع لقاتل مأجور كي ينهي حياتها بهذه الطريقة الشنيعة؟!

قاطعَ قطز أفكاري قائلًا بحماسٍ:

– ما أظنش إن الغرَض هو السرقة، اللي قتلها كان راصدها من ساعة ما طلعت العمارة وأول ما نزلت هووووب، دبحها. أقولك.. ممكن تبقى مثلًا مرتبطة بواحد غني أوي وأهله حابين يجوزوه لواحدة غنية أو لبنت عمه بس هو رافض عشان بيحب القتيلة ومتمسك بيها فالعيلة قالت تخلص منها عشان...

صاح فيه صلاح قائلًا:

– إيه يا ابني فيلم رد قلبي ده؟!

صمت قطز الذي يميل دائمًا لتفسير جرائم القتل بطريقة درامية تليق بشخصيته الرومانسية النابعة من أفلام الستينيات التي يحفظها عن ظهر قلب، وبالرغم من اتفاقي الجزئي مع نظرية القاتل المأجور إلا أنني لا أؤيد فكرة أنها قُتِلَت لأنها فقيرة؛ فالسيارة التي تقودها باهظة الثمن.

لم أتوقف عن تدقيق النظر بأركان السيارة مداعبًا الليمونة التي تساعدني على التفكير بصفاء ذهنٍ وهي عادةٌ اكتسبتها منذ كنت بالثامنة.

– سيادة النقيب لمونة.. إنت يا ابني!

التفتُّ لصلاح السمج وقلتُ بجدية:

– إنت عندك كام سنة يا صلاح؟

تعجب من السؤال فقال:

– جايب لي عروسة ولا إيه؟ –ثم ضحك كالكلب العاوي وأكمل بسخافته المعهودة– 34 سنة يا ابني.

– وأنا عندي 26 سنة، أبقى ابنك إزاي؟ خلفتني وانت عندك تمن سنين؟

– اتضايقت عشان بقولك يا ابني؟ صاح مناديًا شخصًا غير موجود: هات ياض بوكيه ورد ودبدوب أحمر نصالح بيه سيادة النقيب لمونة عشان اتقمص ثم عاد للضحك بسخرية.

تمتمتُ ضاغطًا على ضروسي: عيِّل مِمَشِّش.

همس قطز: هيجي يوم أظرفه بوكس يوقَّع شنبه ده.

قلتُ بفتور: طب، يا صلاح باشا حضرتك مسيطر وحاطط إيدك على خيوط القضية كلها ومش محتاج اتنين هواة زينا. نتكل الله إحنا بقى وصباحك مربي.

– اتكلوا، إنتوا مافيش منكم رجا.

ظهر لنا بواب خمسيني بجلبابٍ رماديٍّ يركض مذعورًا صوب سيارة الشرطة الزرقاء صارخًا:

– يا باشا، يا باشا. إلحقنا، يا باشا.

صاح فيه صلاح بعصبية:

– إيه يا ابني إنت؟ بتصرخ زي البقرة كده ليه؟

– مصيبة.. مصيبة يا باشا.

أشار لنا صلاح بعجرفة قائلًا: شوفوا الزفت ده عايز إيه.

قال قطز: نشوف إيه؟ إحنا خلاص ماشيين، ابعت معاه الأمين.

قال صلاح بحزم: مش سيادتكم عايزين تترقوا وتبقوا بشاوات؟ اتفضلوا شوفوا شغلكم.

قال قطز: بس إحنا...

قاطعه صلاح تاليًا ما يحفظه من قانون هيئة الشرطة كالببغاء الأجرب:

– يلتزم ضابط الشرطة بتنفيذ ما يصدر إليه من أوامر بدقة وأمانة.

زفرَ قطز متمتمًا: الله يحرقك إنت وقوانينك.

التفتُّ للبواب السمين المذعور وسألته بفتور:

- موضوعك إيه إنت على الصبح؟

- أستاذ طه عبد اللطيف.. ربنا نزِّل عليه لعنته.

قال قطز وقد نفدَ صبره:

- ما تخلص، طه زفت ماله؟

- اتبخر، يا باشا.

(2)

لقد خانه التعبير، طه عبد اللطيف لم يتبخر بل هو.. حسنًا، أنا عاجزٌ عن وصفِ ما أراه بعيني؛ فلو حكاه لي أحدهم لسخرت منه، ولو رأيته في فيلم لوصفته بالخيال العلمي الرخيص.

***

صعدنا مع البوَّاب إلى عمارة جروبي التي ظلَّ قطز يتأمل سلالمها وأبواب شققها متحدثًا عن فن الـ "آرت ديكو" المعماري والجيران ينزلون لأشغالهم والطلاب لمدارسهم، بينما البواب يقص علينا ما اكتشفه لاهثًا:

– الأستاذ بيصحى كل يوم الساعة ستة يسحب الجرنال وينزل يفطر، بس النهارده الساعة جَت سبعة والجرنال لسه على عتبة الباب، خبطت عليه مافتحش خُفت لتكون جات له غيبوبة السكر تاني ففتحت الباب و...

سألته: فتحت الباب إزاي؟

– بالمفتاح، يا باشا. أصل من ساعة ما جَت له غيبوبة سُكَّر وهو إداني مفتاح شقته وقالي عشان يعني لو حصل له حاجة أدخل ألحقه، أصل المرة اللي فاتت هو...

قاطعه قطز: هو عايش لوحده؟

– طليقته عايشة في فرنسا مع ابنه بقالها يجي تلاتين سنة وعمرها ما زارته.

وصلنا شقته بالدور الثاني بآخر الطرقة لنجد الجرنال ملقى عند عتبة الباب فوق السجادة الخشنة الصغيرة ودخلنا الصالة الواسعة التي تعج بالأنتيكات بطريقة غير منظمة، لو رأت جدتي ذاك المنظر لاستشاطت غضبًا من هذا الإهمال، ولكن فور أن دخلت غرفة النوم بآخر الممر الطويل نسيتُ كل الأنتيكات والتحف المبعثرة، فما رأيته قادرٌ على أن ينسيك اسمك.

فاحت رائحةٌ مميتة من هذه الغرفة التي يغلب عليها اللون الأبيض.

نوافذها الكبيرة مغلقةٌ وستائرها الحريرية مسدلة.

يفترش الأرضية سجادٌ إيراني دقيق الصُّنع فوقه سرير أبيض الغطاء، أمامه كرسيٌّ مُحتَرِقٌ.

على يَدِ ذاك الكرسي كفٌّ متفحِّمٌ بأحد أصابعه خاتمٌ ذَهَبِيٌّ مُمَيَّز وعلى مقعدته المبطنة رماد منثور من أعلى إلى أسفل، وعلى طرف ظهر الكرسي رأس رجل مقطوعة أكل اللهب تفاصيلها. تستند هذه الرأس المعدومة الملامح على حائط كُتِبَ عليه بدهان أحمر وبخط اليد "الله أكبر".

***

أتى فريق البحث الجنائي وقد صُدِموا مثلنا.

كيف يمكن لأحدهم أن يحترق إلى درجة أن يتحول إلى رمادٍ – عدا كفه ورأسه – ولا يُمَس شيء

بشقته سوى كرسيه الذي طالته بضعة حروق سطحية.

ليس هذا فحسب، بل لا توجد أية آثار لاقتحام المنزل، فالنوافذ كلها مغلقة والباب لم يصبه خدشٌ، والبواب دخل بالمفتاح؛ أي أنَّ مَن ارتكب هذه الجريمة يملك مفتاحًا ولكن السؤال الذي شغلني أكثر مِمَّن ارتكب الجريمة هو: كيف ارتكبها؟!

***

– ده غضب ربنا.

هكذا أجاب جاره المسن بالشقة المقابلة للمجني عليه طه عبد اللطيف، فقلتُ له:

– يعني إيه؟

– يعني واحد ملحد عمال يتنطط على القهاوي والصالونات الثقافية ومخصص الجرنال بتاعه عشان يدعو الناس للكفر، قال إيه؟ مافيش حاجة اسمها ربنا والكون ماشي بالفيزيا والكيميا مش بقدرة الخالق، تقدروا بقى يا بشوات تفهموني بالفيزيا والكيميا الراجل ده اتحرق واتحول لرماد إزاي؟ الجسم محتاج حرارة ما تقلش عن 1500 درجة مئوية عشان يوصل للحالة دي، أنا كنت مدرس كيميا وبقولك درجة حرارة زي دي كانت فجَّرِت العمارة كلها مش يبقى جسمه بس اللي

متفحم والأوضة كلها مافيهاش خدش.. دي قُدرة القادر، أنا ياما نصحته بس هو ما اتعظش.

لم تختلف أقوال المسن عن غيره، جميعهم أكدوا أن طه عبد اللطيف صاحب جريدة المعارف من الدعاة إلى الإلحاد علنًا، وأنه اعتاد نشر أفكاره الملحدة في لقاءاته بالقنوات التليفزيونية بل إنه أَلَّفَ كتابًا ينفي وجود الله، ويؤكد أن ما الأديان سوى كذبة اخترعها الأوَّلون لحكم الأمم وتغييب الشعوب وأقسم الجميع من البواب حتى أستاذ الجامعة المقيم بالبناية أن ما حدث لطه ما هو سوى انتقام الله العزيز الجبار.

انتهى كلانا من استجواب كل الجيران وقد تطابقت الأقوال فقال قطز:

– الكل بيأكد إن ماحدش سمع صريخ ولا شم ريحة شياط ولا شاف دخان وبيحلفوا مِية يمين إن ده غضب ربنا عليه.

وضعتُ يدي عند خصري ناظرًا لتلك الغرفة وقد أخذوا الكرسي بما عليه من رمادٍ ورأسٍ محروقة وكفٍّ متفحمٍ، وما زال رجال البحث الجنائي يلملمون أيَّة أدلة حتى أتى حسني – أمهر رجال البحث الجنائي– قائلًا بتوتر:

– مافيش أي حاجة تسبب الحريق، لا تسريب غاز ولا ماس كهربائي ولا بنزين مدلوق ولا عقب سجارة ولا شمعة ولا حتى مركبات فسفور في الحيطان أو الدهان تسبب الحريق المنيل ده.

– طب والبصمات؟

– لِسَّه بنرفعها، بس.. حكّ رأسه الكبير ثم قال: الموضوع فيزيائيًا مستحيل. درجة حرارة الأوضة عادية جدًا، الإزاز ما عليهوش بخار، مافيش أي أثر لهباب الحريق على أي حاجة.

من الحاجات البيضا اللي في الأوضة، الأوضة مليانة حاجات معدنية كانت المفروض تسيح.

الراجل ده اتعرَّض لنار ماتقلِّش حرارتها عن 1500 درجة عشان يتحول لرماد كده، وبعدين المفروض حرارة زي ده تخلي جمجمته تتمدد أو تنفجر لكن جمجمته سليمة، الملامح اتحرقت لكن الجلد ما وقعش حتى الخاتم الدهب اللي في صباعه ما انصهرش.. إزاي يتحول لرماد وما يتبقاش منه غير كف وراس.. شكل كده...

قاطعته: أوعي تقولي إنت كمان غضب ربنا.

– ليه لأ؟ ماسمعتش عن البنت اللي حرقت القرآن فربنا لعنها واتحولت لمعزة؟ ولا الواد...

– هو إنت من النوع اللي بيدخل يعمل لايكات لبوستات مكتوب عليها تحداني يهودي أن أجمع مليون لايك ولن تصدق منظر قطة تؤذِّن وديك يؤم بالمصلين والجو ده؟

– إنت بتتريق؟ هو ربنا مش قادر يولع في حد أهانه؟ إنت مش مؤمن بقوة ربنا؟

– إنت هتكفَّرنا، يا عم؟ أنا مؤمن بقدرة ربنا وعقابه بس ربنا بيعاقبنا في الآخرة.

– وفي الدنيا كمان عشان نبقى عبرة لغيرنا.

قاطعه قطز: لا مؤاخذة يعني، ما أوروبا كلها ملحدين. إشمعنى طه بالذات اللي يبقى عبرة؟

توقف حسني قليلًا ثم كاد أن يجيب ولكني قاطعته:

– هو ربنا يوم ما يعاقب حد هيكتب على الحيطة الله أكبر؟ الموضوع فيه لعبة.

– طب اتفضل يا سيادة النقيب، قولِّي إيه اللعبة؟

نظرتُ حولي ثم سألتُ قطز:

– البواب لِسَّه بَرَّه؟

– قاعد في الصالة والعسكري عينه عليه.

خرجنا من الغرفة فهمستُ لقطز مستعجبًا:

– لما أذكى واحد في فريق البحث الجنائي بيفكر كده، أومال الناس اللي على قدها هتقول إيه؟

– إحنا لبسنا قضية حلزونية.. منك لله يا صلاح.

ذهبنا للبواب الذي توتر في مقعده، وفور أن رآنا وقف ولكني جلستُ أمامه عاقدًا أصابعي، قائلًا بنبرة آمرة: مين اللي عمل كده؟

– ربنا يا باشا، ده عقاب...

– ماشي ماشي، عقاب ربنا.. مين بقى اللي طبَّق عقاب ربنا على طه؟

– والله ما أعرف يا باشا. الناس كلها شايفين إن أستاذ طه كافر ولازم

يتطبق عليه الحد. لو كان مات مدبوح ولا مقتول كنت هقولك تلاقيه أي عيل عايز ينصر دين الله، لكن الموتة دي مش من فعل بشر، فردَ كفيه في وجهي: والعشرة دول، دي قدرة الله وحده.

زفرتُ ثم دعكت عيني قائلًا:

– طه ده بيعمل إيه في يومه؟ بيروح فين؟

– بيصحى الساعة ستة، ياخد الجرنان وينزل يفطر في جروبي، بس لما جروبي قفل بقى بيروح المطعم القديم ده اللي كله إزاز اللي في الشارع هنا و...

قاطعه قطز: قصدك على ريش؟

– أيوه يا باشا. بيفطر ويروح مكتبه في شارع التحرير بعدها يتغدى ويرجع ينام من الساعة ستة للساعة تمانية وعلى تسعة كده بيقعد على القهوة اللي ورا مطعم ريش أو يروح صالون المتثقفين وما يرجعش قبل الساعة اتناشر أو حداشر بالليل ينام على طول.

– كان في حد متعود يزوره؟

– عمري ما شُفت له قريب ولا بعيد. ماكانش فيه غير أخوه وده مات من يجي عشر سنين، وقبلها طلَّق الست الفرنساوية وسافرت وخدت العيل معاها بس عمرهم ما زاروه.

سأله قطز متثاءبًا: طب في حاجة غريبة حصلت إمبارح؟

– أبدًا يا باشا. أنا قمت من مكاني الساعة اتناشر والأستاذ كان وصل على حداشر وكان شكله مبسوط أوي حتى كان ماشي يغني للست.

– في حد تاني معاه مفتاح الشقة دي غيرك؟

– الله أعلم، بس... اضطرب ثم قال: هو انت شاكك فيه. يا باشا عشان معايا المفتاح؟ طلاق تلاتة ما عملت حاجة.. بدأ يبكي كالرضيع: وربنا المعبود أنا في العمارة دي بقالي خمسة وأربعين سنة ما حد شاف منِّي حاجة وحشة، وحتى الأستاذ نفسه بالرغم من كفره كنت حاطُّه فوق راسي، أنا بعامل الناس كلها واحد و...

– ما خلاص، يا عم. سِدّ بُقك ده.

نهضتُ برفقة قطز قائلًا: تعالى نبص على الأماكن اللي بيروحها أكيد هنطلع بحاجة.

***

بدأنا كما اعتاد طه أن يبدأ، فاتجهنا إلى مطعم ريش سيرًا على الأقدام.

كان مطعمًا عتيقًا يشبه صندوقًا زُجاجيًّا كبيرًا موضوعًا في إطارٍ خشَبيٍّ عملاقٍ تنسدل على جوانبه ستائر بيضاء. وفور أن تدخل ستلفت نظرك تلك الملصقات القديمة وعبارة "اللي اختشوا ماتوا" المكتوبة بالأحمر بجوار مجموعة كبيرة من الإعلانات عن ندوات وجلسات ثقافية.

وقف قطز عند الباب متأملًا السلم النحاسي الجانبي وتمتم صوبي قائلًا:

– تعرف إن أيام ثورة 1919 كانوا عاملين مطبعة هنا بتطبع المنشورات اللي...

قاطعته بنفاد صبرٍ: تعرف تسكت!

استقبلنا عند الباب نادل داكن البشرة، يرتدي قميصًا أبيضَ وصديريًّا أسودَ و "بابيون" أنيق.

اقترب منا قائلًا بملامح متحفظة:

- صباح الخير.

قلتُ بهدوءٍ: صباح النور، أنا النقيب نوح الألفي من المباحث الجنائية.

ارتبك قائلًا: خير، يا فندم؟

- أنا بسأل عن الأستاذ طه عبد اللطيف و...

- هو لِسَّه ماجاش بس...

قاطعه قطز: هو مش هيجي عشان اتقتل.

انقبضت ملامح النادل الكهل وجحظت عيناه بين هذا الكم المهول من التجاعيد حولها قائلًا:

- يا حول الله، الله يرحـ... ولَّا بلاش.

- ما تجوزش عليه الرحمة ولا إيه؟

- آديه قابل ربنا اللي كان بينكره.. مين اللي عمل فيه العملة دي؟

- هنعرف.. قولي، هو جَه هنا إمبارح؟

- أيوه، اتعود يجي كل يوم يفطر مع ضيوفه.

- مين ضيوفه، بالظبط؟

- ناس معروفين من اللي بيطلعوا في التليفزيون وبيزعقوا في البرامج.

- يعني بيجوا يفطروا سوا وبس؟ ما بيتكلموش في حاجة؟

– مش بيتكلموا كتير، بيسلمهم وبيستلم منهم جوابات وبعدها يفطروا ويمشوا.

سأله قطز: جوابات إيه؟

– مش عارف، كان يديهم ظرف ويدّوا له ظرف. أكيد حاجات تخُص الجرنال بتاعه، هو صاحب جرنال كبير ورثه عن أبوه. أنا كنت تملي أقراه بس بعد ما بقى بيخوض في دين الله بطلت أجيبه. حاكم أنا أعرف الأستاذ من أيام ما كان بيجي مع أبوه، كان راجل يتحط على الجرح يطيب والعيبة ما تطلعش منه لكن يخلق من ضهر العالم فاسد.

قال قطز: إنت شايفه وحش أوي كده؟

– الأستاذ طه كان كويس لحد ما سافر فرنسا وحاله اتغير ورجع يقول حاجات غريبة اتعلِّمها من بلاد بَرَّه ومشي في خط الكفر لحد ما غاص في الوحل.

– طب تفتكر مين ممكن يقتله؟

– اللي بيغيروا على دينهم كتار. ده كل ليلة يدب خناقة على القهوة اللي ورانا بسبب الحكاية دي.

– اتخانق إمبارح مع حد معين؟

– ما عرفش، أنا ما بقعدش على قهاوي.

– طب إمبارح كان معاه حد على الفطار؟

– آه، الراجل اللي اتخانق معاه ده في التليفزيون.

- راجل مين؟

- راجل الأعمال المشهور ده، منصور الباز. اتخانق معاه في برنامج. أستاذ طه كان طالع أستغفر الله العظيم بيدافع عن حقوق الشواذ وقال إيه من حقهم يتجوزوا رسمي زي ما أمريكا بتعمل. جه الأستاذ المحترم منصور الباز اتصل بيه على الهوا ومسح بكرامته الأرض وقال له إنت بتبوظ الشباب، مش كفاية بتدعوا للإلحاد كمان للشذوذ، ساعتها أنا اتبسطت أوي منه بس لما لقيتهم تاني يوم سمن على عسل بيفطروا مع بعض وبيضحكوا، عرفت أنها تمثيلية ولعنتهم هم الاتنين.

- كانوا بيتكلموا عن إيه؟

- مش عارف، أنا سمعي على أدّي. بس في الأول كانوا شادين في الكلام والأستاذ منصور بيكلمه من تحت ضرسه، بعدها اتصالحوا تقريبًا وهزروا واتعازموا كمان على مين اللي هيدفع.

حككتُ ذقني قائلًا: وطه سلِّمه أو استلم منه أي ظرف؟

- لأ، فطروا ومشيوا.

***

قررنا أن ننقسم.

ذهب قطز لمكتب طه ليتحقق من أمر الأظرف التي اعتاد طه أن يسلمها ويستلمها بينما ذهبتُ إلى المقهى الذي كان يومًا ما حديقة شاء القادر أن تتحول لشارع ضيق مبلط تتراص عليه الكراسي والطاولات البلاستيكية الزرقاء التي توضع عليها المشروبات.

سألتُ الصبي عن طه فلم يقل ما هو عكس كلام النادل بمطعم ريش، ولكنه وضع إضافة مهمة:

– إمبارح الأستاذ حسين اتعصب عليَّ و...

– حسين مين؟

– شاب ملتزم بتاع ربنا ساكن في العمارة دي. أشار للعمارة القابعة بآخر الممر: شد إمبارح مع الأستاذ عشان هو زوِّدها أوي. حسين جادله بالتي هي أحسن بس هو رَدّ عليه ببرود وفضِل يستفزه؛ فكان هيمِدّ إيده عليه وفضِل يقوله هتحل عليك لعنة الله بس إحنا طبعًا فرَّقنا بينهم يعني والموضوع خلص.

– حسين ده اتخانق مع حد قبل كده؟

– لا، يا باشا ده في حاله. دي حتى أول مرة أشوفه متعصب كده. بس يا بيه ما تدقش، أستاذ طه كل ليلة يدب خناقة مع حد، بيقعد معاه خمس ست عيال أستغفر الله العظيم زيه كده، والباقي مش راضين عن كلامه، أنا قُلت لصاحب القهوة ديك النهار ما يخليش الأستاذ يجي يقعد هنا تاني عشان المشاكل اللي بيعملها وحتى عشان بركة المكان ما تقولش بس هو قالي يا واد يا كنكة، مدام بيدفع الحساب يبقى كل واحد حُر.

صمتُّ ناظرًا صوب البناية التي أشار لها قائلًا إن حسين يقطن بها فعلَّق الصبي:

– بتفكر إنت في حسين، يا باشا صح؟ لم أعلِّق ولكنه أكمل: استحالة يكون هو اللي وراها، مش بس عشان هو شاب عاقل ووحيد أبوه وأمه،

بس عشان إمبارح قبل حتى ما الأستاذ طه يمشي حسين رجله اتكسرت. وقع على الرصيف وإحنا نقلناه على المستشفى، وممكن تسأل أي حد من اللي كانوا موجودين، لو مش مصدقني.

***

لم يكن يكذب، لقد كُسرت ساق حسين بالفعل.

استقبلتني والدته ظانة أنني زميلٌ أتى ليطمئن عليه، ولم أكن زائره الوحيد؛ فبهذه الشقة الواسعة التي امتلأت حوائطها بالآيات القرآنية والمسابح العملاقة وتوسطت طاولة الطعام مبخرة أنيقة تفوح منها رائحة بخور مخنقة، وجدتُ ثلاثة شباب آخرين في بداية العشرينيات على وشك المغادرة بعد أن اطمأنوا على صديقهم السمين الراقد في سريره وبجواره منضدة عليها مصحف ومسبحة إلكترونية ومسواك، وقد قدَّمتني والدته له على أنني صديقه بالرغم من أنني لم أقل ذلك ولكنه رحب بي بابتسامة قائلًا:

– أهلًا وسهلًا، شرَّفت.. تشرب إيه؟

– ولا أي حاجة، شكرًا.

– لا، إزاي؟ لازم تشرب حاجة لحد ما والدتي تحضَّر الغدا.

– ألف شكر. انتظرت حتى غادرت والدته ثم أكملت: في الحقيقة أنا جَي أسألك سؤالين وأمشي على طول.

– سؤالين إيه يا أخ.. اعذرني وجهك مش مألوف، حضرتك معانا في الجامعة؟

- لأ. أنا النقيب نوح الألفي.

تغيرت ملامحه واضطربَتْ قائلًا: خير؟ في إيه؟

- أنا جاي أسألك عن اللي حصل مع طه عبد اللطيف.

- قصدك على الخناقة؟ أنا ما مدِّتش إيدي عليه، مسِكت نفسي على آخر لحظة وقُلت والكاظمين الغيظ وده برضو من سن أبوك وما يصحش بس الراجل ده قادر على بث الفتنة زي ما الحية بتبخ سمها، أنا مش معترض على إنه ملحد بس معترض على إنه بيدعو الجميع للإلحاد علنًا، هي العقول ناقصة ضياع وتشتت أكتر من اللي هي فيه؟!

- وبالنسبة لك ده دافع كافي لقتله.

انتفض قائلًا: قتله؟! هو مات؟

- طه مات محروق في شقته و...

- وعشان أنا بقى متدين وملتحي سيادتك جَي تلبس لي التهمة.

- أنا مش جاي ألبسك حاجة. إنت اللي اتخانقت معاه وهدِّدته علني والكل يشهد بده.

- والكل برضو يشهد إنّ رِجلي اتكسرت واتنقلت للمستشفى قبل ما الأستاذ يروَّح.

- ممكن إنت تروح المستشفى بس تحرض غيرك إنه ينفِّذ و...

قاطعني بنبرة ساخرة قائلًا: بقولك إيه، يا باشا.. روح شوف ملتحي غيري ولبسها له.

سحبَ مصحفه وفتحه قائلًا: حسبي الله ونعم الوكيل.

(3)

لم أعد قادرًا على البقاء مستيقظًا أكثر من هذا.

حلَّ العصر على كِلينا فجلسنا بسيارتي "النوبيرا" الحمراء كثيرة الأعطال، أجمع كل ما توصلتُ إليه أنا وقطز من معلومات نافثين دخان سجائرنا.

– كل اللي شغَّالين في الجرنال بتاعه عاملين زيه كده، بيؤمنوا بنفس المبادئ والأفكار وشايفين إننا عايشين في مجتمع جاهل ومتخلف ومتطرف ونابغة زي طه لازم يكون مستهدف بسبب أفكاره المستنيرة وإنه شهيد الانفتاح الفكري.

زفرتُ ثم أشعلتُ سيجارة أخرى قائلًا:

– أنا تقريبًا اتكلمت مع كل اللي بيقعدوا على القهوة وكل اللي بيشتغلوا في ريش والجيران وحتى سكان العمارة اللي قدامه، كلهم بيقولوا غضب ربنا.. مالاقِتش أي حاجة مهمة في مكتبه؟

– كلها كتب فلسفة عن الإلحاد وأفكار سياسية ومسودة مقالات وما إلى آخره.

– مافيش خزنة ولا درج مقفول ولا...

– مافيش غير لاب توب عليه باسورد بعته للشباب عندنا يفتحوه.. بس عايز أقولك الصحافة على ودنها، مافيش حد في مصر دلوقتي مش بيعمل شير للخبر ويقول الله أكبر.

– إحنا وصلنا لإيه لحد دلوقتي؟

– طه له بدل العدو ألف بسبب...

– بسبب إنه ملحد، يعني دايرة البحث بتاعتنا في المتطرفين اللي عندهم القدرة إنهم يدخلوا شقته ويطلعوا منها من غير ما يقتحموها. ماشي، حد دخَل الشقة، طب إزاي قتله كده؟ وبعدين.. إيه حوار الجوابات اللي قال عليها الجرسون ده؟

– ما أنا سألت البت السكرتيرة قالت لي إن هي دي طريقة طه في استلام الصور أو الأخبار من اللي شغالين معاه وإنه دايمًا بيدي فلوس في الأظرف، بيعشق الأظرف زي عينيه.

– مش راكب في دماغي الهري ده.

– طب وبعدين؟ مقفلة من كل حتة، يا نوح. البيت مافيهوش غير بصمات البواب وطه نفسه.

– يبقى البواب اللي عملها.

– الناس شهدت إن البواب فضِل على القهوة اللي في شامبليون من ساعة ما ساب العمارة في نُص الليل لحد أذان الفجر وبعدها صلَّى جماعة ونام على روحه وهو بيسمع درس الفجر لحد ما الناس صحوه وراح

العمارة وزع الجرايد ونضَّف العربيات ومسح السلم وبعدها اكتشف الجريمة، أنا عصرته أسئلة و...

– أومال مين يعني اللي عملها، يا قطز؟ أبويا طلع من قبره ولَّع في سي طه ورجع تاني؟!

– إهدا بس، بتوع المعمل شغالين من نار، العيون كلها علينا دلوقتي وأكيد النتايج اللي هتطلع هتوصَّلنا لحاجة.. بس عارف إيه اللي هيجنني؟

– انجز.

– أنا فاكر إني سمعت عن موتة زي دي قبل كده، كونتيسة إيطالية جسمها اتحول لرماد وما اتبقاش منها غير تلات صوابع وبرضو مافيش حاجة ولَّعت في قصرها.

– قطز، أنزل من العربية.

– بتكلم بجد. ماما حكِت لي الموضوع ده قبل كده بس مش فاكر كان اسمها إيه.. طرقع أصابعه فجأة قائلًا: هو أنا واجع دماغي ليه؟ مش أختك دكتورة في ألسُن إيطالي؟ أكيد تعرف أكتر مني، اسألها يمكن نلاقي حاجة تفيدنا.

– عارف إيه اللي هيفيدني بجد؟ أطفأتُ سيجارتي وأكملتُ: ساعتين نوم.

– نوم إيه دلوقتي يا نوح؟ إحنا ماسكين قضية بنت ستين في سبعين ولو حلناها هتفرق في تقييمنا وترقيتنا، ويمكن نطلع بمكافأة وانت تقولي أنام؟

– أنا مطبق من أول أمبارح، فُكك. هنام وأصحى فايق.

- براحتك، أنا مش هنام غير لما على الأقل ألاقي خيط نمشي وراه.

- هنلاقي خيط وهنمسك القاتل والموضوع هيخلص وهيحل السلام العالمي، بس أنام حبة.

***

صعدتُ سلالم البناية رقم ستين المُطِلَّة على النيل بجاردن سيتي حيث أقطن مع جدتي منذ أن تزوجَتْ أمي من ذاك الطبيب النفسي اللزج.

فتحتُ الباب الخشبي الثقيل ذا الشُراعة الزجاجية فأتاني صوتُ الكلبين ينبحان بالمدخل.

دخلتُ حيث فاحت رائحة الفراولة التي تعصرها جدتي إحسان الدمرداش البالغة من العمر سبعين عامًا والتي لا تسمع سوى أغاني "إديث بياف" التي تنبعث موسيقاها الباريسية من أسطواناتها السوداء الدائرة بالجرامافون النحاسي الذي أهداه لها جدي الراحل أيام خطبتهما وقد اشترت باقي الأسطوانات من فرنسا أثناء بعثة التفوق التي حصلت عليها مع مجموعة من دارسي الحقوق إلى جامعة السوربون وقد عادت لتصير أستاذ القانون الجنائي بجامعة القاهرة حتى وصلت لسن المعاش ثم توفى جدي وتركنا مع كلب "جيرمين شيبرد" يدعى "روي" وكلبة "مالطي" بيضاء تشبه علبة المناديل أسمتها جدتي لولو وهي تناسب شخصيتها الباريسية بشدة، فجدتي لا تتكلم دون استخدام مصطلحات فرنسية لا أفهمها وتضع عِطر شانيل 5 وتحافظ على قَصّة شعرها الفرنسية ولونه الأحمر الكرزي ولا ترتدي سوى الأثواب والبلوزات من الشيفون

والتنانير الراقية فلن تجد بخزانتها سروالًا واحدًا بل مجموعة من القبعات الأوروبية المنتمية لحقبة الخمسينيات ومعظم ملابسها إن لم تكن كلها تحمل نمط التايجر البُني.

- إنت جيت يا نوح؟

أخذت لولو تقفز أمامي كالملبوسة فتجاهلتها قائلًا:

- أيوه يا تيتة.

تخطيتُ الصالة ذات الصالون الفرنسي الأنيق والتحف المرصوصة بنظام والتي انشغلت الخادمة فكيهة في تنظيفها بالماء والليمون بحرصٍ واتجهتُ إلى المطبخ حيث وجدتُ جدتي تقف أمام الخلاط تمارس هوايتها المفضلة في جمع الفاكهة وعصرها وتعبئتها في أكياس بلاستيكية وإلقائها بالفريزر ثم تنساها لشهور فتلتقط رائحة الثوم والبقدونس واللحم النيِّء ثم تراها صدفة فتخرجها وتفكها من جمودها كي أشربها أنا بما تحمله من روائحة متداخلة غصبًا وافتراءً.

أرخيتُ رأسي على الثلاجة التي امتلأت بمجسمات ممغنطة لبرج إيفل وقوس النصر وعَلَم فرنسا وبضع كلمات فرنسية قائلًا:

- في إيه يتاكل، يا سونة؟

استدارتْ بوجهٍ أسود متفحِّمٍ جلعني أجفل متمتمًا:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

- إيه، يا ولد؟! شُفت عفريت!

- إيه اللي على وشك ده؟

- ماسك القهوة.. فاضل تلات دقايق وأغسله.

صبَّتْ الفراولة من الدورق في كوبٍ زجاجيٍّ وناولَتْه لي فقلتُ:

- مش عايز أشرب. أنا جعان، يا تيتة.

- الأكل بيجهز.

نظرتُ حولي متفحصًا المطبخ السيراميكي الذي تلمع زواياه فقلتُ:

- أكل إيه اللي بيجهز؟ أنا مش شايف حلة واحدة.

- هيجهز دلوقتي، خُد دُش ونام شويتين هتصحى تلاقي الأكل جاهز.

- أنا عايز آكل دلوقتي.

ده مش بنسيون عشان تاكل وتنام فيه وبس.chéri-

- على فكرة هُمَّا اخترعوا البيوت عشان ناكل ونشرب ونرتاح، مش عشان نخترع فيها الذرة.

أخذت تتمتم وتسبني بالفرنسية ثم نظرت في ساعتها الذهبية الرقيقة التي لا تخلعها إلا عند الاستحمام، واتجهت صوب الحمَّام وبدأت تفرك وجهها بشكلٍ دائريٍّ من ماسك القهوة فاستسلمتُ واتجهتُ إلى غرفتي التي نظفتها فكيهة وفاحت منها رائحة المنظِّف بالليمون، وبمجرد أن خلعتُ حذائي وسترتي وجدتُ نفسي أغوص في نومٍ لا سيطرة لي عليه.

***

هي ذكرى أكثر من كونها حُلمًا.

أقف في كهفٍ مظلمٍ بسقفه فجوات يتخللها نورًا ضعيفًا على استحياء وأجد مجموعة من البدو جالسين مرتعشين بزاوية ثم ملكًا فرعونيًا يطوف حولهم ومحاربًا فارسيًا على حصانه الأسود يتجول بطرقات الكهف وأرى نفسي صغيرًا في الثامنة من عمري وأمامي شابة بدوية آية في الجمال، لها بشرة رائقة وشعر أسود طويل وعينان واسعتان خضراوان يكسوه ثوبٌ مطرزٌ، تنحني على ركبتيها وتفتح لي قبضتها وبيدها ليمونة صفراء ثم تهمس لي وعلى وجهها ابتسامة مشجعة:

- لو رايد الأمان، شُق اللمونة يا إنسان وانطق اسمك بعد ذِكر السلام.

أخذ منها الليمونة وشقَّها نصفين فيلتفت إليَّ كُلُّ الموجودين فجأة ثم أقول لهم بفخر:

- سلام عليكم، أنا نوح الألفي.

فيجيبون جميعًا في صوتٍ واحدٍ: وعليكم السلام.

***

شعرتُ بيدٍ توضع على عيني وإصبع يُدَسّ بفمي فاستيقظتُ من حلمي منتفضًا لأجد التوأمين العفريتين ابنيّ شقيقتي يلعبان في فمي الذي يظل مفتوحًا أثناء نومي.

- يا ولاد الـ...

ركضا مقهقهين خارج الغرفة فجلستُ بالفراش المقابل للنافذة المطلة على النيل وقد خيَّم الظلام على الأفق وتراقصت أنوار البواخر العائمة بالنهر.

فركت عيني ومسحتُ لعابي ثم تفقدتُ هاتفي، قطز لم يتصل.

خرجت من الغرفة على نباح لولو المزعج فصحتُ صوب المطبخ:

– ما تسكِّتي علبة المناديل دي يا تيتة.

خرجت نادية من المطبخ وهي شقيقتي الكبرى التي لا تشبهني في شيء سوى عينيَّ العسليتين وغمازتي البارزتين وعدا هذا، فهي قصيرة ومستديرة ولها بشرة فاتحة وشخصية متسلطة ونظر ضعيف وصبر قليل ومزاج عاصف بعكس زوجها طارق الذي وُلِدَ وتربى بالكويت ثم عاد إلى مصر لدراسة الصيدلة بجامعة عين شمس، وقد تزوَّجا فور أن أنهت دراستها ليمثلا زوجين مختلفين كل الاختلاف، ومع ذلك منسجمين كل الانسجام.

الاختلاف لا يتوقف عند أنه في غاية الطول وهي في غاية القصر وأن له بشرة داكنة ولها بشرة فاتحة بل لأنه شديد الصبر، طويل البال، بارد الأعصاب، دبلوماسي الردود، يتبع مبدأ "حاضر بتريَّح" فهو ينفِّذ تعلميات وأوامر نادية متجنبًا ثورات غضبها القادرة على جعل حياته أسود من أيام النكسة ويتجلى ذلك في تربية أطفالها الثلاثة، تالا البالغة خمسة أعوام والتوأمين يحيى – على اسم والديّ الشهيد – وياسر البالغين من العمر ثلاثة أعوام، فنادية تضخم كل الأمور فيما يتعلق بصحة وتفوق

وتميز الأطفال وتصيح فيهم كالمجنونة إذا أخفقوا أو تعدوا حدود اللياقة التي لا يفهمونها بعد، بينما يظَلّ طارق يتابع الأفلام الوثائقية على ناشيونال جيوغرافيك ببالٍ رائقٍ.

لا أرى قاسمًا مشتركًا بين طارق ونادية سوى أن كليهما يرتدي نظارة نظر كبيرة ويحب صوت بافاروتي الأوبرالي ويدمن القرفة باللبن.

وعلى الرغم من اختلافهما إلا أنهما زوجَان ناجحان لسبب أجهله؛ فهما قادران على إدارة عدة مشاريع معًا، حتى إنهما يؤلفان روايات بوليسية مشتركة حازت على نجاحٍ لا بأسَ به.

– كنت لِسَّه هصحّيك قالتها نادية وهي تخرج أطباق الكسكسي بالخضار من المطبخ.

– عيالك الشياطين كانوا بيلعبوا في خلقتي.

جحظت عيناها وتطايَر منها الشرر صوب الطفلين اللذين يحاولان امتطاء روي المستسلم لهما، وصرخت فيهما: بتعملوا إيييييييييه؟ أنا مش قُلت نقعد محترميييييين؟ تعالوا هنااااااا.

خرجت "تالا" التي ورثت من أمها غمازتيها ومن أبيها بشرته الداكنة وشعره الكثيف، من المطبخ وركضت صوبي بحماسٍ طفولي يجعلني أفكر في الزواج لإنجاب طفلة تشبهها:

– نوووووووووح.

حملتها عن الأرض وقبَّلتها مداعبًا ضفيرتيها المشدودتين:

– حبيب قلبي...مربى بالتوت، يا ناس.

ضحكَت ثم همست في أذني: جبت لي الحلويات اللي قلت لك عليها؟

أجبتها هامسًا: جبتها، الجو أمان عندك إنتِ.

– أمان.

صاحت نادية: بتتوشوشوا على إيه؟

قبلتُ تالا ووضعتها أرضًا قائلًا: خليكِ في حالك إنتِ، سر بيني وبين بنت أختي.

لو علمت نادية أنني أشتري لهما الحلوي التي تمنعها عن أولادها لشنقتني في ميدان عام.

خرجت جدتي حاملة صحنًا كبيرًا من اللحم الضأن وقالت لنادية:

– ما تنادي على جوزك البروطة ده يشيل معانا.

صاحت نادية بصوتها الحاد: طاااااااااااااارق.

– حاضر.

خرج من غرفة المعيشة في ثوانٍ بابتسامته البلهاء والـ "تي شيرت" البولو الأسود الذي لا يرتدي غيره والكروكس الرمادي فوق الشراب الصوفي الأبيض، فنظرت جدتي الـ "فاشونيستا" لقدميه قائلة:

– البتاع البلاستيك اللي بتلبسوه ده بيحرق لي دمي.

– يا تيتة ده حاجة في الإنجاز، أنا ساكن في الشارع اللي قُدَّامكم هجيلك بتوكسيدو يعني؟

قالت من تحت ضرسها: أهو ده اللي إنت فالح فيه.. روح هات طبق الشوربة وهِزَّها شوية.

– حاضر، يا تيتة.

تجمعنا حول السفرة ولم يتوقف التوأمان عن قرص وركل بعضيهما من أسفل المفرش و "تالا" تسألني كل دقيقة والأخري عن موعد تسليم البضاعة المهرَّبة وجدتي تأكل بأناقة وطارق يلتهم الكسكسي بنهمٍ بينما وكزته نادية بمرفقها وقالت بصوت كالفحيح:

– براحة...مش آخر زادك.

– أصل تيتة بتعمل الكسكسي أحسن من المغاربة نفسهم.

مسحت جدتي فمها بطرف منديل المائدة بأرستقراطية وقالت:

– أنا جبت وصفته من صديقة مغربية أيام ما كنا في السوربون، كان اسمها سُكينة، هي

. La cuisine Marocaine اللي علمتني كل أسرار

بلع طارق الطعام وهز رأسه كالحمار قائلًا: طبعًا، طبعًا.

التفتت إليَّ نادية قائلة: شُفت، يا نوح خبر موت طه عبد اللطيف؟

– شُفته؟ ده أنا اللي متدبس في القضية؟

توقف كلٌّ من نادية وطارق عن الطعام ونظرا لبعضيهما كالمتآمرين وإذ بطارق يقول لي باسم الثغر بحماس البُلهاء:

– قول والله؟

- إنت عبيط ولا إيه؟

قالت نادية بحماس مشابه: أصل أنا وطارق كنا بنفكر نكتب رواية عن الموت بالـ shc.

- الموت بإيه؟

أجابني طارق بطريقة عملية معدلًا نظارته:

- يعني الاحتراق الذاتي البشري، دي حالة نادرة جدًا. في خلال القرنين اللي فاتوا، ما اتسجلش غير حوالي 200 حالة ماتوا زي طه كده.

تركتُ الطعام قائلًا بفضولٍ: وضَّح لي.

- الموضوع ببساطة إن واحد بيموت محروق بدون ما المكان المحيط بيه يتأثر. الإنسان بيكون هو مصدر الحريقة، هو الفتيل. بيفضل يتحرق بشكل عمودي لحد ما يبقى رماد وده بسبب الدهون المتخزنة في جسمه بتبقى عاملة زي البنزين اللي مستنى شرارة صغيرة تولعه ومافيش شيء بيتحرق غير الإنسان نفسه أو أي شيء هو يلمسه و....

- اللي إنت بتقوله ده كلام علمي، يا طارق ولا رواية جديدة بتألفوها؟

أسرعت نادية مدافعة: طبعًا كلام علمي. دوّر على النت عن ظاهرة الاحتراق الذاتي البشري، في ناس ماتوا كدة وأشهرهم الأرملة "ماري ريزر" في الخمسينات والكونتيسة "كورنيلا دي باندي"، اتحولت لرماد وما اتبقاش منها غير...

قاطعتها قائلًا: تلات صوابع. قطز حكى لي عن الحوار ده.

– والفارس الإيطالي بولونوس فورستيوس، شرب كمية كبيرة من النبيذ وبعدها ولَّع سيجارة واحدة فاتحرق.. الموضوع مثير للاهتمام أوي وسبحان الله أنا وطارق كنا لِسَّه بنفكر نكتب حاجة كده بعد ما قريت عن حادثة الكونتيسة في كتاب تاريخ بالصدفة، فدوَّرنا على النت ولقينا يجي عشرين قضية مشابهة ماتت بالحالة دي وزمان في العصور الوسطي كانوا بيفسروا الموضوع ده على إنه سحر إسود ودلوقتي...

قاطعتها: دلوقتي بيقولوا إنه غضَبْ ربنا على طه الملحد الزنديق.

قال طارق: هو اللي يشوف الموضوع من بعيد يفتكر كده، خصوصًا إن قبلها بيجي إسبوع طلع في التليفزيون مع شيخ وقاله لو ربنا بتاعك ده متضايق من اللي بقوله خليه يرد عليَّا بنفسه.

قالت جدتي: وآديه رد.

التفتُّ لها قائلًا: إنتِ فعلًا مصدقة، يا سونة أن دي معجزة وغضب ربنا؟

– زمن المعجزات خلص، يا نوح. بس إن واحد يموت موتة بشعة زي دي وما يلاقيش اللي يدعي له بالرحمة.. أظن ده أكبر غضب ممكن ينزل على حد.

فكرتُ في كلامها وكلام طارق ونادية ثم سألتهما:

– طب لو افترضنا إن الكلام ده صح، وإن الجسم هو اللي بيتحرق ويعمل الحرارة دي. إزاي إيده وراسه سُلام؟

– غالبًا الإيد والرجل بينفصلوا عن باقي الجسم وبيصابوا بحروق لكن مش بيتحولوا لرماد عشان دول أقل منطقتين فيهم دهون.. معظم اللي بيموتوا بالطريقة دي بيبقوا تخان وكبار في السن وبيشربوا كحول كتير ومدخنين، وناموا ونسيوا السيجارة في إيدهم فولعوا زي ماري ريزر كده.

أضافت نادية: أو مثلًا كان فيه شمعة جانبهم زي الكونتيسة دي باندي.

– طب لو مافيش ده ولا ده؟

– أكيد فيه حاجة. لازم يكون في شيء هو حتى ولو شرارة من أي جاهز كهربائي أو موبايل مثلًا بيؤدي إلى حرق الدهون والأعضاء الداخلية ومن بعديه يدوب اللحم و...

صاحت جدتي ممتعضة: إيه القرف اللي بتقولوه على الـ table ده، كلوا وانتوا ساكتين.

***

جلستُ مع نادية وزوجها اللذين أسهبا في الحديث عن هذه الظاهرة وأسرع طارق إلى شقته ليحضر اللاب توب فجلس ثلاثتنا نتناقش في الأمر وعرضا عليَّ كل ما جمعاه من معلوماتٍ وأخبار عن حوادث مشابهة ثم وضعنا قائمة بالعلامات المشتركة بينها وأسباب حدوثها.

بعد مضي بضع ساعات من البحث الموسع، اتصلتُ بقطز الذي أجابني بصوتٍ ميت فسألته:

– إنت ماروَّحتش كل ده؟

– لأ. مستني حد يعبرني من البحث الجنائي.

– طب أنا تقريبًا حطيت إيدي على خيط كده، في حاجة اسمها أثر الفتيل.

– مش فاهم.

– الكونتيسة اللي إنت قُلت عليها دي ماتت بحاجة اسمها الاحتراق الذاتي البشري بتخلي الإنسان عامل زي الفتيل، يتحرق بشكل عمودي لكن ما يحرقش اللي...

تثاءب: أنا مش فاهم حاجة.

– ما إنت بقالك يومين صاحي أكيد مش هتفهم حاجة. بُص، هديك كام حاجة تسأل عنها بتوع البحث الجنائي وروح نام وأنا هكمل.

أمليتُه بضعة أسئلة وهو ينصت ويدوِّن حتى تثاءب بشدة قائلًا:

– ماشي، وانت هتعمل إيه؟

– أنا هروح شقته أتأكد من كام حاجة كده.. بفكر أقابل طه نفسه.

(4)

أظن أنه قد حان الوقت لأخبرك الحقيقة الثالثة عن نفسي، بشرط أن تعدني أنك لن تتعجل وتحكم عليها بالخرافة والمبالغة ولتكن صبورًا وتنصت لحدسك؛ فحتى وإن لم تكن قصتي منطقية فهي حقيقية، بلا شك.

في عمر الثامنة، وهبني الله الحاسة السادسة.

أتذكر أن الأمر حدث خلال إجازة منتصف العام، عندما سافرنا إلى واحة سيوة، وقرَّر أبي أن نشاهد الشروق من فوق جبل الموتى الذي تشاءمت أمي من اسمه بينما تحمست نادية لرؤيته ودخول المقابر الفرعونية المتراصة عموديًا في باطنه على شكل خلية نحل مرعبة.

كان فجرًا باردًا، ولكن الملابس الثقيلة التي حشرتني فيها والدتي كانت كفيلة بتحصيني ضد تلك النسمات الخبيثة المتسللة إلي صدري.

وصلنا عند هذه الهضبة العالية التي سُمِّيت جبلًا مجازًا واقتربنا من الدرجات الحجرية لنبدأ صعود الجبل المدهش، وبينما أخذ المرشد البدوي يتمتم بمعلومات عن اكتشاف هذه الجبَّانة الأثرية صدفة أثناء

الحرب العالمية الثانية حيث احتمى فيها سكان الواحة من غارات الألمان، ثم أخذ يتكلم عن الأُسرَات الفرعونية المدفونة بالمقابر، سمعتُ همسًا.

صوت أنثوي ناعم يناديني باسمي. نظرتُ حولي فلم أجد سوى مجموعة من الأجانب العجزة يتمتعون بمنظر الواحة السحري من أعلى الجبل الصخري.

شعرتُ بالارتياب. المكان يبدو مخيفًا، ففتحات المقابر التي تخترق شكله المخروطي تشبه الأفواه المتلهفة لابتلاع أجساد الموتى المحنطين، وازداد خوفي عندما قال المرشد إنه يشاع أن جيوش قمبيز ملك الفرس قد بلعتها رمال هذا الجبل ولم يظهر لهم أثرٌ فانشغلت أمي بتمتمة آية الكرسي كلما ذُكِرَت كلمة موتى أو سحر أو مقبرة بينما شاهد أبي المباني والبيوت البدوية الدقيقة المرصوصة أسفل الواحة ملتقطًا بعض الصور وشقيقتي تدوِّن كل معلومة يسكبها المرشد ذو الجلباب الأبيض وتنهال عليه بالأسئلة الدقيقة المفصلة.

عندما تأكدتُ أنه ما مِن مراقبٍ لي، تسللتُ من بينهم متبعًا صوت المرأة التي تناديني.

كان مصدر النداء فتحة مقبرة قريبة من السلالم، وقفتُ عند طرفها بينما أكمل أهلي صعود الدرجات ظانين أنني خلفهم، ولكني كنتُ أنظر للحفرة التي لم أرَ بها سوى ظلامٍ يتخلله ضوء خافت يتراقص بزاوية قاعها القريب.

مِلْتُ لأستوضح مصدر التور ففلتت ساقي عند هاوية الحفرة وكدتُ أسقط على وجهي لولا يدٌ خفية تلقفتني فسقطتُ على مؤخرتي بدلًا من وجهي ونزلتُ على الأرضية المنخفضة ثم تلفَّت حولي فلم أجد أحدًا ولا مصدرًا للضوء الضعيف الذي كان بالزاوية، لا أحد غيري بهذه المقبرة الفرعونية ذات السقف الواطي فنهضتُ ونفضتُ الرمال عني وبدأت أتفرج.

كانت تشبه الكهف الصخري بأفلام الكارتون وامتلأت جدرانها بنقوش وصور لبشر بروؤس حيوانات أسفل شجرة مخيفة متشابكة الأغصان، أذكر أن أمي أخبرتني أنها تدعى شجرة الجميز.

فكرتُ في كيفية التسلق إلى الفتحة والخروج، ولكني سمعتُ اسمي ثانية فتركتُ الحجرة المربعة متبعًا ذاك الصوت العذب ومشيتُ في دهليز مستطيل ضيق وبالرغم من أنني وحيدٌ في جوف ذاك الجبل الموحش إلا أن روح المغامرة دفعتني وكأنني أحد المغامرين الخمسة، وبهذا الحماس الطفولي، سرتُ وضوء حمرة الفجر الخافت يتسلل من فجوات سقف الجبل فيضيء أجزاء من طريقي حتى سمعتُ بكاء أطفالٍ وهمسات خافتةً ثم شعرتُ ببرودة مباغتة وشممتُ رائحةً غريبةً ورأيتُ منظرًا أغرب جعلني أتوقف وأراقب في صمت.

مجموعة كبيرة من الأشخاص يرتدون جلابيب بدوية، جالسين أرضًا ومتكومين بالزاويا ملتصقين بالجدران الصخرية مرتعشين ويحتضنون أبناءهم ونساءهم في هلعٍ وينظرون لأعلى بين الفجوات التي تخترقها

أصوات مخيفة تشبه أصوات الطائرات الحربية بالأفلام التي يجعلني أبي أشاهدها عن حرب أكتوبر فخفتُ من عنف الصوت المقترب وكأن الطائرات ستسقط فوق الجبل، ولكن قطعَ خرير المحركات صهيلُ خيلٍ فالتفتُّ لأجد حصانًا أسود ذيله مجدل وشعره مقصوص وعلى ظهره سرج أنيق دقيق التطريز، يمتطيه فارس يرتدي زِيًا حربيًا معدنيًا ودرعًا حديدًا وبيده اليسرى راية مرفرفة عليها قُرص شمسٍ ذهبيٍّ واليمنى سيف حاد وعلى رأسه خوذة ثقيلة تنتهي بريشة نعام بيضاء كبيرة.

شقَّ المحارب المَمَرّ بحصانه وعبرَ من خلال أجساد البدو الخائفين من الطائرات فاهتزتْ صورتهم كصفحة الماء عندما تلقي بها حجرًا ثم ثبتت الصورة ثانية ولم يُبدوا أيَّ تعبيرٍ أو رد فعل ولم يلتفتوا حتى للفارس وكأنه لم يعبر من خلالهم منذ لحظة، بل ظلوا يرتعدون وينظرون لفتحات الجبل كمنتظري الموت.

أخذتُ أراقب ممتطي الجواد الأسود الراكض بالجوار حتى أرعبني صياحٌ غاضبٌ فاستدرتُ لأجد نفسي على مقربة من باب مقبرة أكثر أناقة ونظافة من تلك التي سقطتُ بها.

وقفتُ عند مدخلها ونظرتُ لجدرانها المزيَّنَة برموزٍ ملوَّنة باللون الأحمر، ولكني لم أهتم للنقوش الفرعونية فقد تثبتت عيني على الأرض حيث يرقد تابوت حجري مغلق خرج منه ملك فرعوني عاري الصدر يرتدي حلي ذهبية من رأسه حتى أخمصه.

عبر من خلال الغطاء الحجري للتابوت فنفذ منه دون أن يفتحه ثم وقف ولم ينظر صوبي كأني غير موجود على الرغم من قربي منه.

نظر حوله بعجرفة ثم رفع رأسه بغرورٍ ومَرَّ من خلالي.

شعرتُ ببرودة مخيفة انتصبَ لها شعر جسدي كله وزادت ضربات قلبي وبدأ الخوف يتملكني فور أن عبر من خلالي ولكن فجأة، شعرتُ بيدٍ توضع على كتفي فالتفتُّ لأجد شابة ترتدي ثوبًا أبيضَ له أكمام واسعة، مطرزًا عند الصدر كملابس كل سكان الواحة.

كانت تحمل في يدها مصباحًا زَيتيًّا تتراقص به شعلة تعكس ملامحها: عينيها الواسعتين الداكنتين، شفاها المكتنزة، أنفها الدقيق ووجنتيها التفاحتتين وشعرها الأسود الواصل لخصرها.

وضعَتْ يدها المزينة بأكسسوارات فضية تغطي كفَّها كُلَّه وابتسمت بحنانٍ فأذهبت عن جسدي القشعريرة والبرودة التي خلفها الملك وعندما تكلَّمتْ، عرفتُ أنها من كانت تناديني منذ البداية.

– ما تخافش.

نظرتْ حولها حيث البدو الخائفون من أصوات الطائرات والفرعون الذي يمشي بزهوٍ، والفارس الذي يطوف بحصانه ثم نزلَتْ على رُكبتَيْهَا وكانت تفوحُ منها رائحة الليمون النضر التي ازدادت بوضوحٍ عندما اقتربت مني وهمست برفق:

– لو رايد الأمان، شُق اللمونة يا إنسان وانطق اسمك بعد ذِكر السَّلام.

لم أفهم ما تعنيه، ولكنها فتحَتْ قبضتها فرأيتُ بها ليمونة صفراء كبيرة، قدمتها لي بابتسامة تشجيعية فأخذتها ببلاهة الأطفال وحاولت أن أشقَّها.

قضمتُ جزءًا منها مما سهَّلَ عملية قسمها لشقين، وفور أن فُتِحَت وانبعثت رائحة الليمون، التفت كل الموجودين إليَّ وكأنهم أدركوا وجودي توًا.

الملك والمحارب والبدو الخائفون، جميعهم ثبَّتُوا نظرهم عليَّ فبدأت عصارة الليمونة تجف كأن هناك من يمتصها وتغيَّر لونها بسرعة من الأصفر إلى البُني.

ربتت البدوية الجميلة على كتفي وهزت رأسها في رضا فأكملتُ تنفيذ تعليماتها، صحتُ بشجاعة صوب كل الموجودين ورفعتُ رأسي قائلًا بفخر كالمنشدين بكورال المدرسة:

- سلام عليكم، أنا نوح الألفي.

ابتسموا جميعًا وهزوا رؤوسهم محيين قائلين في صوتٍ واحدٍ:

- وعليكم السلام.

ضرب المكان ضوء كشاف قوي جعل أرواح المقبرة كلها تتلاشي تدريجيًا حتى صاحبة الليمونة ثم سمعتُ وقع أقدام يصاحبه صوت أمي تصرخ باكية وأبي ينادي هلعًا:

- إنت فين يا نوح؟ يا نووووووووح.

- نووووووح.

اختفى كل شيءٍ عدا الليمونة التي ظلت بيدي وعرفتُ يومها أن لليمون فوائد أخرى غير محارِبة الإنفلونزا ومعالجة داء الأسقربوط.

رائحة الليمون تجذب الأشباح لذلك أُبقي واحدة بجيبي كلما أردتُ الاستعانة بروح هائمة.

منذ ذاك اليوم وأنا أشق الليمون وألقي السلام ثم أنطق اسمي كلما رأيتُ روحًا...

***

بعد منتصف الليل اتجهتُ لميدان طلعت حرب، وأمام العمارة 6، رأيتُ روح تلك الطالبة التي ذُبِحَت في سيارتها وتولى قضيتها صلاح الشبكي.

كانت كسائر الأرواح، شفافة يمكنك الرؤية من خلالها وترتدي نفس الملابس التي قُتِلَت بها، وتظهر بعد يوم كامل من موتها في نفس المكان الذي ماتت به.

كانت كمعظم الأطياف، لا تعلم أنها ميتة. فقد كانت تقف مكان سيارتها – التي تحفَّظ عليها فريق البحث الجنائي – وتتلفت حولها في توترٍ، وكلما مرَّ أحدهم بجوارها تذهب صوبه قائلة:

"لو سمحت، ما شوفتش عربيتي؟!"

ولكنها لم تجد أية أجابة، فما من أحد يراها بل إن هناك شابًا متعجل عبر من خلالها دون أن ينتبه فوقفت مشدوهة تنظر لجسدها الشفاف في هلعٍ.

قد يشعر بعضُ الأحياء بوجود روح ميت تطوف حولهم بأن يشتموا رائحة مفاجأة لا مصدر لها مثل رائحة دخان قوي أو عطر نفاث أو

يحسوا بتغيُّر مفاجئ وغير مبرَّر في درجة الحرارة، ولكن أن يروا الأشباح بوضوح، فهو أمرٌ يحتاج لعين أثيرية كالتي حصلتُ عليها بجبل الموتى.

فيما يخص الأشباح، لدي بضع قواعد.

القاعدة الأولى: لا تتعامل سوى مع الشبح الذي يهمك أمره؛ لأن باقي الأشباح ستظل ملتصقة بك لكونك الوحيد الذي يراهم فهم يعانون من الوحدة ولن يدعوك وشأنك بل قد يطلبون منك طلبات سخيفة كأن توصل رسائل لأهاليهم من الأحياء أو أن تنتقم لهم؛ لهذا صففتُ سيارتي وتجاهلتُ روح الطالبة المذعورة ثم صعدتُ بناية جروبي حيث وقف عسكري حيَّاني وانتظرت قدوم البواب الذي سألته وهو يفتح باب شقة القتيل مرتبكًا.

– طه كان تخنان في الفترة اللي فاتت؟

– لا، يا باشا. طول عمره رياضي وجسمه ولا أجدعها شاب.

– طب كان بيشرب؟

– يشرب إيه؟ قصدك منكر يعني؟ تصدق بالله، مع إنه كان كافر بس لا كاس ولا سيجارة.

زادت الأمور تعقيدًا، فالكحول والتدخين وزيادة الوزن هم الأسباب الرئيسية للاحتراق الذاتي.

– يعني عمرك ما شُفته بيدخن؟ ولا حتى تفاريح؟

– عمره يا باشا. أصل أبوه مات بالمرض الوحش من كتر السجاير فكان خايف يموت زيه.

- طب كان بياخد منوِّم؟

- والله ما عرف يا باشا.. إنتوا لقيتوا اللي قتله؟

- وإنت مالك إنت.. يلا غور وما تطلعش غير لما أندهلك.

رحل فدخلتُ الشقة بحذرٍ وصولًا إلى غرفة نومه وقد ترك فريق البحث الجنائي علاماتٍ بالحجرة كانت أهمها علامة الكرسي الذي نُثِرَ عليه رماده.

ارتديتُ القفازات الطبية حتى لا أفسد موقع الجريمة ثم نظرتُ إلى مكان المقعد الذي كان يبعد عن السرير ببضعة سنتيمترات.

لو كان طه قد مدَّ يده أو حتى رفع ساقه وهو يحترق للمس السرير وأحرقه بالكامل.

لِمَ لَم ينهض عن كرسيه ويصرخ ويطلب النجدة عندما أدرك أنه يحترق؟!

لو كان تحرك أو ترنح لكانت احترقت أجزاء من الأثاث وإن لم تكن الغرفة كلها.

في قضية "ماري ريزر" كان السبب أنها تناولت منومًا فتأخر إدراكها لكونها تحترق حتى اختنقت من الأدخنة السامة وماتت قبل أن تتحول لرمادٍ منثورٍ، ولكن ماذا عن طه الذي لم يجد فريق البحث الجنائي دواءً منومًا أو مخدرًا.. اللهم إلا مجموعة من أدويته الخاصة؟!

أخرجتُ الليمونة الصفراء من جيبي وداعبتها مفكرًا.

إذا كانت ظاهرة الاحتراق الذاتي البشري حقيقية وتأثير الفتيل الذي يصيب القتيل يعني أنه يحترق عموديًا لكانت تركت أدخنة النيران المتقدة أثرًا على السقف فوق موقع الضحية، ولَكَان الكرسي قد تآكل بالكامل كما حدثَ في الجريمة التي قرأتها بعناية: الأرملة المسنة احترقت إثر تدخين سيجارة وقعت من يدها عندما غفت من تأثير المنوم الذي أخذته قبل النوم فاحترقت ملابسها وأكلت الدهون الداخلية جسدها كله وكرسيها هلك مثلها، ولكنها كانت تشرب الكثير من الكحول وتدخن وقد تركت النيران آثارًا على بعض الأشياء بغرفتها وعلى السقف والسجاد وبعض الأسلاك البلاستيكية وبخارًا على النافذة وسحابة من الدخان الأسود حتى إن حرارة مقبض الباب النحاسي قد ارتفعت وعجزوا عن فتحه بسبب بعض الأجزاء التي ذابت به ولم يحدث أيٌّ من هذا في جريمة طه.

ليس فقط أن الغرفة بأكملها لم تُمَس، بل إن طه ليس بسمينٍ ولا بمُدَخِّنٍ ولا بسِكِّيرٍ، وكرسيه أصيب بحرق طفيف، ولكن ما أسفل وما فوق الكرسي لم يمسسه سوء.

بالإضافة إلى أن لحم وجهه لم يذب بل احترق جلده وطُمِسَت معالمه فحسب وهو عكس ما يجب أن يحدث لمصابي هذه الظاهرة التي يبدو أنها لا تتماشى مع قضية طه ولا تناسب حالته؛ فكل مَن توفوا بتأثير الفتيل ماتوا مصادفة وليس بفعل فاعل ولا انتقامًا منهم.

طه لم يمت مصادفة، هناك من دبَّر له هذه الميتة المُحكَمة، هناك من أراد أن يجعل منه عبرةً.

أخذتُ نفسًا عميقًا وأخرجتُ السِّكِّين الصغير الذي أحضرته معي وشققتُ الليمونة بعناية.

أبقيت نصفًا بيدي وأعدتُ الآخر إلى جيبي برفقة السكين.

خففتُ إضاءة الغرفة القوية واكتفيت بضوء مصباح المنضدة، فالأرواح لا تضح في الضوء الساطع أو الظلام القاتم.

لو كانت روح طه بشقته – وهو المكان الذي يجب أن تكون به – فسوف تجذبها رائحة الليمون وستعطيني الأمان وتسمح لي بمخاطبتها.

من المُفترَض أن تحل روحه على الأرض في اليوم التالي بالساعة نفسها التي قُتِلَ بها، ولكن متى ستظهر تحديدًا؟

توقفتُ عن التفكير المفرِط؛ فعند استقبال روح أحد الموتى يجب أن تصفي ذهنك حتى لا تتشتت الروح التي توَدُّ التواصل معها وتخيفها فتهرب منك.

شعرتُ ببرودة خفيفة، بدأتْ الليمونة تجف تدريجيًا، نظرتُ حولي ببطءٍ منتظرًا أن أرى طه.

ازدادات البرودة مع بداية تغيُّر لون الليمونة ثم فاحت رائحة عطر قوي.

لم أتشتت ولم أبعد عيني عن النقطة التي أنظر إليها، وتجاهلت تلك القشعريرة وهذه الرجفة الداخلية التي لا تقل بالرغم من رؤيتي لمئات الأشباح ولكن كلما اقترب طيفهم زادت نبضات قلبي، وبعد كل هذا المجهود إذ بي أجد شبحًا غير الذي أنتظره.

تلك الطالبة الهائمة وقفت بمنتصف الغرفة وعلى وجهها علامات الذهول والتعجب وأخذت تنظر لنصف الليمونة ثم لي وللحجرة كلها.

بلعتُ ريقي وكتمتُ غضبي، ربما يجب أن أتظاهر بأني لا أراها حتى ترحل ولكن عيوننا التقت فأبعدتُ نظري ولكنها قالت:

- إنت شايفني؟

لم أُجِبها وتظاهرتُ بأني أتفحص السرير، فاقتربت مني قائلة بإلحاحٍ:

- يا أستاذ، حضرتك شايفني؟ يا أخينا، إنت سامعني؟

يا لحماقتي! لقد جذبتُ الشبحَ الخطأ.

لِمَ لم أفكر في أنّ روحها تطوف بالمكان وستنجذب كغيرها إلى رائحة الليمون؟

تجاهلتُها، ولكنها مدت يدها عبر منتصف رأسي فشعرتُ بأن عقلي تجمد فصحتُ: لا لا لا.

القاعدة الثانية: إياك وأن تجعل شبحًا يلمسك.

ابتسمت مبتهلة: يعني إنت شايفني!

القاعدة الثالثة: تحدَّث مع الأرواح باحترام، كأنهم شخصٌ حَيٌّ وابدأ دائمًا بالسلام.

زفرتُ قائلًا: سلام عليكم، أنا نوح الألفي.

- وعليكم السلام، أنا بُشرى. أنا كنت بدور على عربيتي وبعدها شميت حاجة و...

– شميتِ ريحة اللمون.

– أنا عمري ما حبيت ريحته بس مش عارفة ليه لقيت حاجة بتشدني إني أطلع العمارة وأدخل الشقة و... نظرت حولها قائلة: أنا إزاي دخلت الشقة وبابها مقفول؟

خرجت للصالة وتأكدت من أن الباب موصدًا.

القاعدة الرابعة: أخبرهم بأنهم موتى بطريقة تدريجية حتى لا تربكهم.

– عديتِ من الباب وهو مقفول.

ضحكَتْ وظنت أنني أمازحها ثم قالت: إزاي يعني؟ أكيد ده حلم، أنا كنت بايتة عند صاحبتي وبنذاكر وحلمت إني ركبت عربيتي وكان في حد قاعد ورا دبحني وبعدها صحيت من الكابوس الفظيع ده.. كان كابوس مرعب خالص كأنه...

– كأنه حقيقي هزت رأسها موافقة فأضفتُ: للأسف هو فعلًا حقيقي.

ضحكتْ بالطريقة نفسها وقالت: هو إيه اللي حقيقي؟

– اللي شُفتيه ماكانش كابوس.. دي حاجة حصلت بجد.

صمتتْ ثم قالت مرتبكة: بجد إزاي؟ إيه الهزار السخيف ده؟ إنت...

– أنا النقيب نوح الألفي وأنا بنفسي شُفت جثتك.

صاحت بكلمات متقطعة: جثة.. أنا.. ميتة إزاي؟ ميتة إزاي وانت شايفني وبتكلمني أهو؟

- ماحدش غيري يقدر يسمعك ويكلمك.

- بس...

أخرجتُ النصف الآخر من الليمونة وبدَّلته بذاك الذي جفَّ منتظرًا ظهور روح طه في أية لحظة، ولكن بشرى لم تتوقف عن الهذيان:

- يعني أنا عفريتة؟

- لأ. إنتِ روح، طيف، شبح لكن مش عفريتة. العفاريت، كائنات تانية مستقلة بذاتها.

صاحت: إنت مجنون يا عم إنت؟!

ثم خرجت من الغرفة كما دخلتها فزفرتُ بارتياح وجلستُ عند طرف السرير منتظرًا ظهور شبح طه، ولكن من الواضح أن السويعات التي نمتها ببيتي لم تكن كافية فلقد غفلتُ ثانية ثم أتاني شعور بارد بأن هناك من يراقبني ففتحتُ عيني بغتة لأجد طيف بُشرى جالسًا بجواري وعلى وجهها حزن شديد فقالت لي منكسرة:

- ماحدش شايفني، الناس بتعدي منِّي كإني شبح...أو.. هو أنا اتدبحت فعلًا؟

فركت عيني وعدلت جلستي ثم تفقدتُ ساعتي، إنها الثالثة فجرًا.

نظرتُ لنصف الليمونة، لم يتغير لونها ولم تجف، شبح طه لم يظهر بعد.

- أيوه.

- ليه؟

- مش عارف.

- مش بتقول إنك ظابط؟

- أيوه بس مش أنا اللي شغال على قضيتك.

- أومال مين؟ أنا عايزة أتكلم معاه.

- لا هيسمعك ولا هيشوفك.

- إشمعنى إنت شايفني وسامعني؟

- عشان.. كيف أشرح لها الأمر: ربنا مدِّيني حاسة مش عند غيري.

- الحاسة السادسة يعني؟ سوبرهيرو إنت؟

- لا سوبر ولا زفت، أنا بس.. زفرتُ ثم أكملتُ على مضض: فيه مكان في سيوة اسمه جبل الموتى وقعت في المقابر اللي عنده طلعت بعرف أشوف الأشباح وبتكلم معاهم و...

- زَي مسلسل ساحرة الجنوب كده؟

- لا مش زي ساحرة الجنوب، ساحرة الجنوب اتلبست، لكن أنا.. أنا بشوف وبسمع وبتكلم مع أرواح الميتين طول ما هُمَّا على الأرض وبس. ماعنديش تفسير علمي أو منطقي للموضوع.

- قصدك إيه بطول ما هُمَّا على الأرض؟

- الروح بتفضل أربعين يوم على الأرض.

- بعد كده بتروح فين؟

– مش عارف، بيقولوا بتطلع السما أو بتنزل القبر أو بتنتقل للبرزخ. ما تسألينيش.

– والناس عارفة إنك بتشوف الأرواح وبيتعاملوا معاك عادي؟

– كان بودي أحكي لك قصتي المشوقة بس عندي شغل ووجودك مشتتني، فرصة سعيدة.

– فرصة سعيدة؟! هو أنا قابلتك صدفة في ستاربكس يا عم إنت؟ أنا اتدبحت وبقيت روح وماحدِّش شايفني غيرك. رِجلي على رِجلك.

تمتمتُ: بدأنا في شغل الستيكر الأمريكاني.. أنا مش هفيدك في حاجة.

– لأ، هتفيدني. أنا عايزة أتطمن على مامي وأخويا وأعرف مين اللي قتلني وقتلني ليه و...

– إنتي جاية لي أحقق لك أحلامك.. أنا عندي شغل ولبست قضية رأي عام معقدة أكتر من قضيتك مِية مرة.

– يعني أنا دمي يروح غدر عشان حضرتك ماسك قضية رأي عام؟!

– معالِيكِ مش أنا اللي ماسك قضيتك، اتكلي على الله.

– طب أقسم بالله لو ما عملت اللي بقولك عليه لأعفرتك.

سألتها ساخرًا: هتعفرتيني إزاي بقى؟

– هلبسك.

– الجن والعفاريت هُمَّا اللي بيلبسوا الإنسان مش أرواح الميتين.

– طب.. هجننك هـ...

– خليني أوضح لك إنك روح مالهاش أي قوة فيزيائية. إنتِ ما تقدريش تشيلي ورقة من على الأرض، فكك من جو "بارانورمال أكتيفيتي" ده.

ارتبكت وتراجعت ثم همست: يعني أنا.. مالياش أي قوة خارقة؟

– آخرك تعدي من الباب وهو مقفول.

ظلت واقفة مكانها وقد ثبتتْ نظارتها على أنفها ثم أرجعت خصلة بنية خلف أذنها وهي تفكر بينما حاولتُ الاتصال بقطز، ولكن هاتفه كان مغلقًا حتى قالت هذه الروح اللحوحة:

– يمكن ما أقدرش آذيك كروح، بس أقدر أبهدلك كَبِنت وأفضل أزن في ودانك لحد ما تكره حياتك وتلف حوالين نفسك زي المجانين.

لم أجبها، ولكنها جلسَتْ بجواري على السرير وبدأت تصيح بصوتٍ حادٍ:

– مين اللي قتلني؟ ها؟ مين اللي قتلني؟ مين؟ مين؟ مين؟

البنات حتى وإن مُتن لا يتخلين عن أعز ما يملكن: قدرتهن الخارقة على الزن.

أخرجتُ سماعات الهاتف وأوصلتها بالموبايل وشغلتُ الأغاني لينساب صوت حكيم إلى أذني:

– طب الله الله الله الله الله، إيه ده إيه ده إيه ده إيه ده ده.

أحبال حكيم الصوتية الخارقة غطت على صوت شبح بشُرى ذي

الطنين، وقد رأيتُ الضيق على ملامحها وبدأت تطوح يديها في الهواء بغضب وتحاول أن تجذب السماعات أو تغلق الهاتف، ولكن أصابعها الطيفية تمر من خلال الأشياء كالهواء دون أن تقوى على إمساك أيٍّ منهم حتى.

أعادت فعلتها الأولى ومررت يدها من خلال رأسي فغمرتني رجفة نتجت عنها برودة وقشعريرة داخلية مباغتة فانتفضتُ صائحًا:

– إياكِ تعملي كدة تاني.

لو كنتُ بالمنزل، لأشعلتُ البخور وجعلتها تختنق وتفر بعيدًا.

ابتسمتْ ظافرة فقلتُ لها: أنا بقولك بكل أدب، إمشي. ورايا شغل.

– شغل إيه وانت مريَّح على السرير وبتلعب بلمونة بايظة و...

– مش موضوعك أنا بعمل إيه. أقولك حاجة حلوة؟ روحي اتطمني على أمك.

– اسمها مامتك.

– الست الوالدة، روحي شوفيها.

– ما هي مش هتشوفني.

– بس إنتِ هتشوفيها وتطمني عليها...يلا، انصرفي.

– طب أروح إزاي؟ مش هقدر أمشي كل ده.

– لو صفيتِ دماغك وبطلتِ زن وفكرتِ فيها بوضوح هتلاقي نفسك واقفة قدامها.. مش كنتِ بتسألليني عن القوى الخارقة؟ يلا، يا ست السوبرهيرو روحي لمامي.

نظرت لي بشك، ولكنها أغمضت عينيها وظلت هكذا لبضع دقائق حتى اختفتْ، أتمنى ألا تعود.

***

أذَّن الفجر وتخللت السماء الداكنة بضعة خيوط من النور الباهت وبدأت تظهر السيارات المتحركة بالشوارع ولم تظهر روح طه بعد.

الساعة تقترب من الخامسة، كيف لم تظهر روحه بعد، لقد تلقّينا بلاغًا من البواب بأنه ميت في تمام السابعة فمن المفترض أنه ميتٌ بعد منتصف الليل حيث رآه البواب آخر مرة.

أين طيفك، يا طه؟

– أنا شُفتها.

التفتُ لأجد بشرى جالسة على طرف السرير حزينة ومهمومة.

– رجعتِ ليه تاني؟ خليكِ جانبها.

– جَت لها جلطة. بدأت تبكي: أنا عايزة أعرف مين عمل فيَّا كده، وليه؟ أنا طول عمري في حالي مابعملش حاجة غير المذاكرة والجامعة وبس، ليه حد يقتلني ويقهر مامي كده؟

اللعنة على دموع النساء التي لا أتحملها.

– ما تعيطيش طيب.

– أنا عايزة أعرف ليه؟ لو ساعدتِني أعرف، أوعدك هحل عنك ومش هتشوفني تاني.

زفرتُ مستسلمًا: إنتِ ليكي أعداء؟ حد بيكرهك؟

– لأ، أنا في حالي، آخري أتخانق عشان درجة زيادة ولَّا مع حد مش شغال كويس في البروجيكت لكن أخلي حد يقتلني كده و...

– في الغالب اللي قتلك مايعرفكيش، أظن إنه قاتل مأجور.

– ومين اللي يدفع فلوس لحد عشان يدبحني؟

– يمكن مثلًا حد بيكره أبوكِ، مش لازم يبقي عدوك أنتِ.

– بابي مات ومامي حامل فيَّ، مين العدو اللي هيقتلني بعد عشرين سنة من موته.

– طب وماما؟

– مامي غلبانة ومالهاش في أي حاجة، بتدرِّس في الـAUC والكل بيحبها.

– يمكن حاجة حصلت مثلًا أو...

– استحالة حد يكره مامي لدرجة إنه يقتلني بالطريقة البشعة دي.

– وأخوكِ؟

– متجوز روسية وعايش في الغردقة وفاتح أوتيل هناك.

صمتُّ مفكرًا حتى سألتها ثانية: ليكِ مثلًا في السياسة أو المظاهرات أو...

– مش بفهم فيها. أنا حتى مش بشترك لا في اتحاد الطلبة ولا تنظيم الرحلات ولا...

– طب إحكيلي اللي حصل قبل ما تموتي بالتفصيل يمكن أخلَص من زنك.

– أنا كنت بذاكر عند وفاء والمفروض هبات عندها عشان نخلَّص البروجيكت بعدها اتصلت بمامي أتطمن عليها لكن ماردتش لا على الموبايل ولا التليفون الأرضي، افتكرت حصل لها حاجة واترعبت، نزلت بسرعة للعربية و...

– كانت الساعة كام لما نزلتِ؟

– حوالي واحدة ونص بالليل، جِيت أفتح العربية لقيت المفتاح مش راضي يدخل وبدأت تعمل إنذار، بصيت على اللوحة لقيتها عربية تانية راكنة قُدَّام عربيتي لكن نفس الشكل بالظبط بس عشان متلهوجة ماخدتش بالي. ركبت عربيتي، قلعت الشنطة ورميتها جانبي لقيت الباب بيتفتح وحد بيركب ورا ولابس جوانتي، شد رقبتي وأنا بحط المفتاح في الكونتاكت وكتم بؤي عشان ما أصرخش ودبحني بسكِّينة غريبة زَي اللي في الأفلام الأمريكاني.

– عربية نَفْس عربيتك بالظبط؟

– بالظبط، نفس اللون والنوع وحتى نفس الخبطة اللي ورا.

عقدتُ أصابعي قائلًا: خدتِ بالك من رقم العربية دي؟

– آه. كانت أمي 1/ 30.

– أمك؟!

– قصدي أ. م. ي 301.. أنا حفظتها عشان تاريخ ميلاد مامتي فعلًا

1/ 30 فاستغربت.

أخرجتُ هاتفي وبحثتُ عن رقم ضابط بالمرور كان بدفعتي فقالت:

- بتعمل إيه؟

رفعتُ يدي في وجهها كي تصمتْ عندما أجابني زميلي:

- نوح باشا.

- حازم بيه، كله تمام؟

- الأمن مستتب.

- بقولك، كنت عايز أسأل عن عربية، أ. م. ي 301 عايز أعرف اسم وعنوان صاحبها.

- عيوني، يا غالي. حبة وأكلمك.

أنهيتُ المكالمة ثم جربتُ الاتصال بقطز ثانية، ولكن هاتفه مازال مغلقًا فقالت بُشرى:

- صاحب العربية له علاقة بموتي؟

- غالبًا صاحب العربية هو اللي كان هيتقتل مش إنتِ.. أكيد صاحبة العربية واحدة ست، يمكن تكون في رُفعك وطولك وشكلك وبتسوق نفس العربية ومن حظك المهبب إنكم ركنتوا في نفس الحتة في نفس التوقيت. اللي قتلك قتلك غلط عشان كده بعد ما دبحك ركز في وشك لقاه مش هو فهرب بسرعة ونسي الباب مفتوح و...

صاحت: يعني إيه؟ أنا اتقتلت غلط، يعني...

– هتفرق معاكي غلط ولا صح؟ في الحالتين إنتِ ميتة.

– لما أتدبح زي الخروف بدون ذنب يبقى حرام.. إنت لازم تقبض على اللي عمل كده، لازم...

رنّ الهاتف برقم حازم فأجبته سريعًا:

– باشا.

– العربية بتاعة واحدة اسمها شهرزاد محمد أحمد زكي، ساكنة في 6 ميدان، طلعت حرب.

– شكلها إيه الست دي؟ صورتها عاملة إزاي؟

– رفيعة وشعرها ناعم وعينيها خضرة، مُزة صغيرة كده.

– ألف شكر يا حازم. التفتُّ لها: صاحبة العربية شبهك، خيط القضية معاها.

– يبقي نروح لها و...

– مش كنتِ عايزة تعرفي مين اللي قتلك؟ خلاص بقى آدينا عرفنا، صباحك مربَّى.

نظرتُ صوب النافذة وقد أشرق ضوء الصباح بعد أن دقت الساعة السادسة والنصف ثم التفتُّ إلى نصف الليمونة الذي لم يمس.

– لو مش إنت اللي هتكمل الموضوع يبقي عرَّف الظابط اللي ماسك قضيتي الحاجات اللي إنت عرفتها دي و...

– أنا أساعد صلاح الشُبكي عشان يحل قضية؟! على جثتي.

– حرام عليك، لو عندك أخت ترضى إن...

– من غير ما تكملي الأسطوانة اللي كلكم حافظينها دي.. هروح أقوله إيه؟ روح القتيلة اللي بتحقق في قضيتها طلعت لي وقالت لي فيه عربية بنفس...

– خليه يسأل البواب. هو أول ما شافني جري يلمَّع لي العربية ولما نزلت منها قالي لا مؤاخذة افتكرت الآنسة شهرزاد، قول للظابط يـ...

رنّ الهاتف ثانية فأجبتُ سريعًا:

– إنت فين، يا قطز؟

– الموبايل فصل. أنا لِسَّه داخل المكتب دلوقتي، تعالى عشان فيه مستجدات مش هتصدقها.

– انجز، يا قطز.

– كل اللي خلتني أسأل عنه في البحث الجنائي طلع مش موجود، مافيش عضم للعامود الفقري والجمجة ما اتمددتش من أثر الحرارة، ومافيش آثار دهنية على الكرسي وخد عندك المفاجأة.

– ها؟

– اللي على الكرسي ماكانش رماد طه.. طلع أسمنت مخلوط بشوية حاجات.

***

لم يظهر طيف طه وظلت روح بشرى تتبعني مثرثرة عن ضرورة مساعدتها لإيجاد قاتلها، ولكنني بقيتُ أتجاهلها حتى وصلتُ للقسم حيث جلس قطز بغرفة مكتبنا وسط مجموعة من الملفات والتقارير يشرب الكاكاو متثاءبًا بصوت كالزئير ودخلت معي بشرى وظلت واقفة أمامي واضعة يديها في خصرها معترضة على تجاهلي لها، ولكني وجهتُ كلامي لقطز:

- أسمنت؟!

أعطاني ورقًا قائلًا: نتايج المعمل أهي، الراس والصوابع يخصوا طه لكن الرماد لأ.

دعكتُ عيني: يعني كده جثة طه عبد اللطيف مش كاملة؟

التفتت بشرى قائلة: هو طه عبد اللطيف بتاع جرنال المعارف مات؟

هززتُ رأسي قائلًا: مات في نفس الليلة اللي إنتِ مُتِّ فيها.

نظر قطز حيث نظرتُ، ولكنه لم يرَ بشرى فقال بتحفظ:

- إنت معاك ضيوف؟

همستُ: البنت اللي اتدبحت إمبارح.

نظر صوبها وقال كالأبله: سلام عليكم.

سألتني بشري: هو شايفني؟

أجبتها: لأ.. إنتِ تعرفي طه عبد اللطيف؟

- هو في حد في مصر ما يعرفوش؟ مات إمتى؟ ده أنا لِسَّه شايفاه أمبارح.

– شُفتيه إمتى؟

– شُفته لما... صمتت قليلًا ثم ابتسمت بخبث: أنا ممكن أقولك كل حاجة بالتفصيل بس لو إنت رُحت للظابط التاني وخليته يدوَّر ورا شهرزاد دي.

زفرتُ متضايقًا: اللهم طوِّلِك، يا روح.

قال قطز هامسًا: في إيه؟

– بتقول إنها شافت طه قبل ما يموت ومش هتقول شافت إيه غير لما أساعدها في قضيتها.

– طب قولها إن صلاح هو اللي ماسك قضيتها مش إحنا.

– ما أنا اتنيلت قُلت. هي مصممة نديله المعلومات اللي عندنا عشان...

– معلومات إيه اللي عندنا؟

قصصتُ عليه ما عرفته عن السيارة المطابقة وشهرزاد فقال قطز:

– طب ما تساعدها يا نوح؟ شهرزاد دي مُعرَّضة للقتل برضو، حرام.

قالت بشري معاتبة: شايف الناس اللي بتحس؟

– خلاص، يا قطز. روح إنت لصلاح وقوله. سحبتُ ورقةً بيضاء كتبتُ عليها اسم شهرزاد وعنوانها كاملًا: إدي له الورقة دي.

– طب ولو سألني عرفت منين.

– قوله كنت معدي عند العمارة الصبح لقيت عربية بنفس المواصفات وسألت البواب قالك اسم صاحبتها خلينا نخلص بقى ونركز في شغلنا.

خرج قطز مسرعًا بينما ظلت بشرى واقفة فقلتُ:

– اتفضلي، ارغي...شُفتيه فين؟

– شُفته مرتين، الأولي لما كنت بركن عند بيت وفاء كان هو نازل من عمارة جروبي وبيتكلم في التليفون، أصل أنا كنت بتفرج عليه في التليفزيون وعارفة شكله كويس وبعد كدة شُفته تاني وأنا نازلة بالليل و...

– الساعة كام؟

– قبل ما أتقتل على طول، كان نازل من نفس العمارة وبرضو بيتكلم في التليفون.

حدقتُ أمامي للحظة.

البواب قال إن طه عاد من المقهى في تمام الحادية عشرة، وفي منتصف الليل رحل البواب ليجلس بالمقهى وبشرى رأت طه قبل مقتلها بدقائق – أي في حوالي الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل – خارجًا من بنايته ويتحدث بالهاتف و...

الهاتف!

كيف لم أفكر في تتبع موقع المكالمات واكتفيتُ بالأرقام المسجَّلة والرسائل النَّصِّية.

بحثتُ بين أكوام الأوراق على مكتب قطز ولكنه دخل قائلًا:

– اتأخرنا.. شهرزاد ماتت خلاص.

وضعت بشرى يديها على فمها مصدومة بينما أكمل قطز: طلعِت

واحدة لا مؤاخذة صوَّرت نفسها مع رجل أعمال في وضع مُخِل وبدأت تبتزه، الباشا متجوز بنت وزير مهم فبعت واحد يقتلها، فقتل الآنسة بشرى غلط فحَبّ يصلح غلطه فاستدرجوا شهرزاد لشقة في المعادي وقتلوها بس حظها إنها صوَّتِت والجيران اتلموا ولحقوا القاتل قبل ما يهرب.

التفتُّ لبشري قائلًا: ها؟ خلاص؟ اتبطيتِ؟

قالت بشري: يعني قبضوا عليه؟

– ما بيقولك لحقوه قبل ما يهرب التفتُّ لقطز: ماتت إمتى؟

– في الفجر والواد اعترف من أول قلم، وجوز بنت الوزير ده بيتحقق معاه في النيابة. صلاح ماكانش مقتنع إن فيه ربط بين الجريمتين، بس لما لقى إن عنوان شهرزاد 6 ميدان طلعت مأجرة شقة مع مجموعة من البنات اللي زيها واتأكد من ملفها في الآداب ولف الموضوع في دماغه لقى فعلًا إن اللي قتل الاتنين واحد خصوصًا إن شهرزاد أتدبحت بنفس الطريقة وعلى موبايلها الفيديو اللي ابتزت بيه الـ...

– ابتزته؟ صمتُّ قليلًا ثم قلتُ سريعًا: هات سجِل مكالمات طه.

انتشل ورقة بين العشرات وأعطاه لي قائلًا:

– بتفكر في إيه؟

– إستنى.

وجدتُ رقمًا غريبًا اتصل به في تمام السادسة، ثم رقمًا آخر اتصل به ثلاث مرات كل مكالمة استغرقت قرابة دقيقتين من بين الساعة الواحدة فجرًا وحتى الثانية والربع.

– شوف لي يا قطز صاحب الرقم ده.

– ودي برضو تفوتني؟ ده رقم من اللي بيتباعوا على الرصيف وبعت حد يدوَّر على صاحبه و...

– مش مهم صاحبه، أنا عايز بتوع جهاز الاتصالات يحددوا الرقم ده كلم طه منين بالظبط.

– ماشي.

أجرى اتصالًا طلب فيه تحديد موقع تلك المكالمة بالقمر الصناعي ثم التفت إلي فبادرته بسؤالي: لقيتوا إيه على اللاب توب بتاعه؟

– ولا حاجة، مواضيع ومقالات وأبحاث فلسفية وكتب عن الإلحاد و...

اقتربتُ من المكتب بالكرسي قائلًا في حماس:

– لو حطينا كلمة الله أكبر اللي على الحيطة وإلحاد طه على جنب. تفتكر اتقتل ليه؟

شاركتنا بشرى في الحوار قائلة: يمكن حد عايز ينتقم منه.

أضفتُ: أو حد عايز يسكته.

قال قطز: يسكته ليه؟ طه ماكانش بيتكلم في السياسة ولا الاقتصاد، يعني مش مناضل و...

– بس ممكن يبقى مبتز.

صمت قطز لوهلة ثم قال: بتفكر في إيه؟

– في الأظرف اللي كان بيسلمها ويستلمها. طه ممكن يبقى زي شهرزاد، بيمسك صور أو فيديوهات أو ملفات أو حاجة يساوم صاحبها عليها. يمكن يبقى ذكي وبيخلي سعره حنين عشان كده الكل بيدفع، يسلمه ظرف فيه فلوس ويستلم ظرف فيه مصيبته وكان بيختار مكان في العلن عشان يبقى في الأمان بس في واحد رفض يدفع.

– حد ماقدِرش على التمن اللي طه طالبه؟

– أو حد مش واثق في إن الفلوس هتسكِّت طه، حد عرف يستدرجه لمكان مقطوع، عشان كده مالقتش روحه في بيته. خبطت رأسي متمتمًا: أنا إزاي غبي كده.. طه ما اتقتلش في بيته.. قطعوا راسه وكفه وعملوا المسرحية دي عشان نتلهي و...

رنَّ هاتف المكتب فأجابه قطز مسرعًا وأخذ ما أراده من معلومات ثم قال:

– المكالمة من المنطقة الصناعية في التبين.

– التبين؟!

هكذا اتضح الأمر.

(5)

في بعض الأحيان يجب أن تغلق عينيك لتري بوضوح.

داعبتُ الليمونة المستديرة مفكرًا ومتصورًا المشهد بطريقة منطقية.

طه أبتز أحد الشخصيات الهامة فقام هذا الشخص بمجاراته. أكد عليه أنه سيدفع له المبلغ كله ثم قام باستدراجه وكلمه ثلاث مرات ليصف له العنوان الذي سيقابله به بين الساعة الواحدة والنصف حتى الثانية والربع.

وصل طه إلى المكان المختار. نحروا عنقه وقطعوا كفه الذي يرتدي به خاتمًا مميزًا. أخذوا مفاتيح بيته. وُضِعَت الرأس والكف بعد أن تم حرقهما بطريقة لا تجعل من المستحيل التعرف عليهما في حقيبة داكنة واتجه القاتل – وهو في الغالب أحد رجال ذاك الشخص الذي تم ابتزازه – إلى البناية ثم دخل الشقة من بابها. أحرق الكرسي بشكل سطحي ثم أطفأه (ربما ببطانية أخذها معه لاحقًا أو ربما قد أتى بكرسي محروق مسبقًا ولم يكن ببيت طه من الأصل). وضع رأس طه وكفه كأنه كان جالسًا على ذاك الكرسي ونثر عليه الأسمنت الذي يبدو بالفعل كرماد جسدٍ

محترِق ثم كتبَ على الحائط "الله أكبر" ليلصق الجريمة بأحد المتطرفين أو المتحمسين لنصرة الإسلام، وليجعل منا أضحوكة وليجعل الجميع يؤمن بفكرة العقاب السماوي الذي أهلك الكافر.. وقد نجح بالفعل. لم يشتتنا ويجعلنا نبحث في دائرة أعداء طه من المتدينين فحسب، بل إنه جعلنا نبحث عن أدلة في نطاق منزله فقط، وعلى الصعيد الآخر فقد تم التخلص من باقي جسد طه.

لقد تحول جسده لرماد بالفعل لتعرضه لحرارة لا تقل عن 1500 درجة مئوية، ولكن أين يمكنك أن تجد مصدرًا آمنًا لهذا الكم المهول من النيران المتقدة دون أن تلفت الانتباه؟

– منصور الباز عنده مصانع للحديد والصلب في منطقة التبين مش كده؟

قال قطز: أظن لكن الجارسون قال إن طه ومنصور كانوا بيفطروا وبيضحكوا و...

– شوفها كده من الزاوية دي.. طه ماسك حاجة على منصور، فقام واخده على حِجره وضحك وهزار عشان ما يبقاش موضع شك، بعدها استدرجه لمكان مصنعه، ده المكان الوحيد اللي ممكن حد يتعرض فيه لدرجة الحرارة العالية دي بدون ما يثير الشكوك.

تمتم قطز: درجة انصهار الحديد 1500 درجة مئوية والجسم محتاج 1500 درجة عشان يتحول لرماد.. يعني هو التخلص من جثة طه هناك

لكن طبعًا ماقدِرش يلم الرماد فراح عمل الحركة بتاعة الأسمنت بس راس طه وكفه موجودين فحتى لو طلعنا وقُلنا للناس إن ده أسمنت مش رماد هيقولوا لك ربنا خفى جسمه وساب راسه عشان يبقى عبرة.

– لعبها صح ابن الصايعة وسوَّحنا في دماغنا عشان ندوَّر ورا الإسلاميين وكل واحد ضد تفكير طه. كل مسلم هيكون موضع شك، لكن في الحقيقة طه ما ماتش عشان ملحد، مات عشان مبتَزّ.

– يعني هو كده أكيد ماسك حاجة على منصور.. إيه بقى؟

– طه اللي هيقولنا.

***

إلى أن دقت الساعة الواحدة فجرًا، بَقينا نبحث عن أيِّ دليلٍ أو معلومة تُتخَذ ضد منصور، ولكنه مثل الأخطبوط، له ذراع في كل مكان وركن وزاوية.

كسائر قادة عصرنا، حرباءٌ تتلون بلون كل سلطة وتتقرب من أصحاب المناصب والنفوذ.

في عهد مبارك، لعب الإسكواش وفي عهد الثورة لبس حظاظة ونكش شعره، في عهد مرسي أمسك المسبحة والمسواك، وبسقوط حكم الإخوان حلقَ ذقنه وجمع التبرعات لصندوق تحيا مصر.

لا أعلم ما الذي قد يجعله يتخلص من طه بهذه الطريقة المُتقَنة؛ فلو كان طه يملك ضده ملفات فساد أو رشوة فما هو بالأمر الجلل في هذا

الزمن الذي يُعتبَر فيه المرتشون ضحية للفقر والفاسدين ضحية الجهل والناس ينسون والحكومات تغفل.

الأمر أكبر من هذا، الدافع شخصي بحت!

***

استغرقني الأمر ساعة حتى وصلتُ منطقة التبين، وبينما كنتُ أقود في الظلام، إذا بشبح عند حيد الطريق الصحراوي على بُعد خمسة كيلومترات من مصنع منصور الباز للحديد والصلب.

رجل نحيفٌ، قصير القامة في منتصف الخمسينيات، له شعر ذهبي وعينان زرقاوان، يرتدي معطفًا غاليًا فوق قميص أزرق أنيق.

يتمشى مطأطأ الرأس، واضعًا يديه خلف ظهره وينظر للأرض ثم للسيارات المارة فتوقفتُ.

كان هو، طه عبد اللطيف، شعره المنكوش وعيناه الواسعتان.. تمامًا كالصور.

أوقفتُ السيارة جانبًا ونزلتُ منها متجهًا صوبه، وهنا سأخبرك بالقاعدة الخامسة:

- ضَع سماعة بلوتوث في أذنك عند التحدث مع أحد الأشباح علنًا حتى لا يظنك الناس مجنونًا.

- سلام عليكم، أنا نوح الألفي.

التفتَ إليَّ بعينين راكزتين ثم قال: وعليكم السلام، وإنت ميت إنت كمان؟

يبدو أن طيفه أذكى من البقية، لقد فهِمَ بمفرده أنه روح متوفٍّ.

– أنا النقيب اللي بحقق في قضية قتلك.

قال بفتور: قبضتوا على منصور ولَّا لسه؟ هو اللي قتلني.

– عارف، بس عايز دليل يأكد ده.

– هتلاقي الصور في شقة باب اللوق.

– شقة مين دي؟

– شقة أخويا، مات من غير وريث فبقت بتاعتي وماحدِّش يعرف عنوانها. هتلاقي سرير نحاس تحته خزنة صغيرة، كلمة السر 5891، جواها صور وملفات تخص كل أوساخ البلد.

– ومن بين كل أوساخ البلد اللي ابتزتهم، إشمعنى منصور هو اللي قتلك؟

– عشان أنا اتغريت وافتكرته زيه زي غيره، ماكانش ينفع يتلعِب معاه.

– ليه؟

تمشى ببالٍ رائقٍ كأنه في حديقة الفسطاط ثم نظر السماء وقال متنهدًا:

– لأنه مش هيسمح لحد يعيش بالسر اللي أنا أعرفه عنه.

– اللي هو؟

– الشواذ اللي منصور بيهاجمهم، هو واحد منهم، قال يعني لو هاجمهم ماحدِّش هيشك فيه. أنا عارف الكلام ده من أيام ما كان جار مراتي في

"نيس". كنت ماسك عليه صور من قبل الثورة بس قُلت بلاش أفضح الراجل، كل واحد حر، لكن هو اللي بدأ، طلع في التليفزيون واستفزني وهاجمني وسبِّني.. بعد ما الحلقة خلصت بعت له من موبايلي السري عينة من الصور إياها. قابلته وقُلت له المبلغ المطلوب وهو عمل نفسه مش عايز شوشرة وخدها ضحك وهزار وقال يعني هيدفع لي اللي أطلبه وزيادة.. خدني على حِجره الخبيث. قتلني وخد الصور والموبايل بس على مين؟ أنا معايا نسخة من كل حاجة. هتلاقي في الخزنة صور تودي كل الطراطير دول في داهية. اللي بتدعي الفضيلة وهي بنت ليل، اللي بيخطب في المساجد وهو تاجر رقيق أبيض واللي بينادي بحقوق الغلابة وهو مرتشي، اللي بيصرخ من الإهمال الصحي وهو أكبر مستورد للأطعمة المسرطنة، واللي بيبيع أعضاء أولاد الشوارع، والفاسد والحرامي والمتآمر و...

- والمبتز؟

ابتسم متهكمًا ثم قال بغرور: يا عزيزي، أنا أشرف فاسد. أنا لا آذيت ولا أفتريت ولا اتبلِّيت على حد. لو كانوا شرفاء ومستقيمين ماكانش حد مسك عليهم حاجة وأنا...

- وإنت عرفت فسادهم وسكتّ. ما أظنش إن ده يخليك أحسن منهم.

ضحك ساخرًا ثم قال: وآديك إنت كمان عرفت، ورِيني هتعمل إيه.

***

ما وُجِدَ بهذه الخزنة الصغيرة، فتيلٌ قادرٌ على إحراق دولة بأكملها.

وثائق وصور منذ التسعينيات كفيلة بحبس أصحابها سنواتٍ لا تُحصى.

منهم مَن مات ومنهم من هاجر ومنهم من هو قادرٌ على قطع ألسنة الجميع وإلزامهم الصمت.

قدمت الملفات جميعها إلى النيابة وتم التحقيق مع منصور الباز ولم أرَ شبح طه ثانية.

علَّه ما زال يحوم بطريق التبين يتأمَّل النجوم متنهدًا أو يحدِّث نفسه متفلسفًا.

لقد مات طه فعلًا بتأثير الفتيل، ليس الفتيل الذي يخص الموت بظاهرة الاحتراق الذاتي البشري، بل فتيل الابتزاز الذي أشعله ولم يكن يعلم تبعات نيرانه.

***

استيقظتُ شاعرًا بتلك البرودة ثانية؛ فوجدتُ كلب جدي روي ينبح صوبَ شبح بُشرى الواقفة بغرفتي مندهشة فسألتني:

– هو الكلب ده ليه بيهوهو كل ما أدخل...هو شايفني؟

همستُ بصوتٍ ناعس: الكلاب والقُطط بيشوفوا الأرواح...خديه واطلعي بره.

قطبت حاجبيها وعقدت ذراعيها وزمتت شفتيها ثم صاحت غاضبة كعادتها:

- إنت شايف إن ده عدل؟

زفرتُ وانقلبتُ على جانبي واضعًا الوسادة على رأسي، ولكنها حلقت فوق الفراش ووثبت لتواجهني قائلة:

- اللي قتل شهرزاد اتعاقب بتهمة قتلها هي وبس، ما ربطوش بين قضيتي وقضيتها. الظابط صلاح ده فاشل و...

- يعني ربطوا قضيتك ولا ما ربطوهاش. في الحالتين الراجل هيتعدم مرة واحدة.

- إنت إزاي بارد كده؟! إنت شايف إن ده عدل يعني؟

تمتمتُ أسفل الوسادة: أنا دوري أكشف الحقيقة وبس، العدل ده بتاع النيابة والقضاء.

- يعني إيه الكلام ده؟ أنا...

نهضتُ صائحًا: إنتِ فاضية ومش لاقية حاجة تعمليها، صح؟ ما تروحي لأمك.

- باسل خدها معاه الغردقة.. كده أحسن، هبقى متطمنة عليها معاه.

- ماشي.. سبيني أنام بقى.

كدتُ أغفو ثانية ولكنها اقتربت وقالت بضحكة بلهاء:

- تعرف إنك بتنام بعين نص مفتوحة وبُقك بيبقى مدلدل؟ شكلك مخيف أوي.

اللعنة على حالة العين الأرنبية الليلية التي تجعلني أنام بعين مفتوحة كالذئب.

فركت عيني وجلستُ على السرير وأشعلتُ سيجارة فقالت:

- هتشرب سجاير على الريق كده؟

- هو إنتِ والدتي؟!

- هي فين والدتك ووالدك صحيح؟

- بابا مات شهيد. كان بيلاحق مجموعة من تجار الهروين وقتلوه.

- الله يرحمه، طب ومامتك؟ أنا مش بشوف غير جدتك وأختك بس.

- ده إنتِ بقيتِ مقيمة وحافظة العيلة بقى؟

- أومال يعني هفضل أربعين يوم لوحدي بعمل إيه؟

- ما تعمليش حاجة، خليكِ لازقة لي ومش مهنياني على نومة كده.

- طب ما ندردش شوية، احكي لي حكايتك مع العفاريت.

- تاني هتقول عفاريت، اسمها أرواح.. أرواااااااح.

- خلاص يا عم سوري. أرواح.. بدأت تشوفهم إزاي بقى؟

قصصت عليها حكاية جبل الموتي بسيوة وظلت تسمع بتشوق ثم قالت:

- لولا إني فعلًا روح وانت شايفني، كنت قُلت دي قصة خرافية مافيهاش ريحة المنطق.

- مش لازم كل حاجة حقيقية تبقى منطقية.

- بس الموضوع صعب يتصدق.

- ده مستحيل يتصدق. عشان كده بخليه لنفسي.

- بس صاحبك مصدقك.

– عشان لاسع والفانتازيا واكلة عقله. لما حكيت له وإحنا أطفال فضِل يتحايل على باباه ياخده سيوة عشان هو كمان ينزل مقبرة جبل الموتى ويشوف الأرواح زيي.

– إنتوا صحاب من زمان أوي كده؟

– اتولدنا لقينا نفسنا صحاب ولما بابا مات أبوه كان زي أبويا بالظبط.

– وعيلتك متقبلين الحكاية دي؟

– لأ طبعًا، ماما أول ما قُلت لها على اللي شُفته في المقبرة عملت لي طاسة الخضة.

– طاسة إيه؟

– طاسة الخضة...أصل حياة المصريين فيها 274 خرافة الحمد الله أمي حفظاهم وبتعملهم كلهم من أول، رش الملح والخرزة الزرقة والدخول بالرجل اليمين لحد فك الأعمال وتسخير الجن السفلي. أطفأت سيجارتي قائلًا: وطاسة الخضة دي يا ستي عشان لو ابنك الحِيلة اتخض ولَّا اتفزع من حاجة تجيبي طاسة وتمليها ماية وتبيتيها في الشمس وتشرَّبيها للمحروس.

– بس مادام مامتك ليها في الحاجات دي يبقى أكيد صدقتك.

– هي صدقت، صدَّقِت إن ابنها لبسه جن وطافت بيه على كل الدجالين اللي تعرفهم، اللي بقى يديها حاجات غريبة تبلبعها له، واللي يقولها حميه بميَّه وملح وعين العفريت، واللي يقولك اللي عليه مش هيطلع غير بالضرب و...

- بالضرب؟!

ضحكتُ قائلًا: ده أنا شُفت أيام سودا.

- هي مامتك إزاي بتؤمن بالكلام ده؟ هي تعليمها على أدّها؟

ابتسمتُ ساخرًا: أمي أستاذ الغُدَد الصماء في القصر العيني.

فتحت جدتي الباب بلا استئذان ودخلت بغتة وعلى وجهها ماسك الزبادي بالعسل:

- في حد معاك يا نوح ولا إنت خلاص اتجننت وبقيت بتكلم نفسك؟

- معايا حد، يا سونة.

نظرت حولها بفتورٍ ثم قالت: طب خلي الحد ده يستنى ويلا عشان الفطار.

خرجت يتبعها حفيف رداء نومها الصوفي وأغلقت الباب خلفها فعلَّقَت بُشرى:

- إشمعنى جدتك اللي مستوعبة الموضوع عادي؟

- في الأول ماكانتش مصدقة. كانت فاكرة إنها مجرد خيالات أو حالة نفسية جَت لي عشان قعدت لوحدي في المقبرة بس لما بابا مات وأنا صغير شُفت روحه وكلمته وهو جالها في الحلم و...

- هو إحنا نقدر نطلع في الحلم؟

- للناس اللي بتحبوهم بس. بابا طلع لتيتة وقالها إني مش عيان ومش كداب، قالها ابني ربنا مدي له نعمة مش عند غيره، ومن ساعتها وهي

بتدافع عني وبتقف لماما.. بس كده كده أنا كنت وصلت لمرحلة كدبت على ماما وعلى نادية وقُلت لهم إني بطلت أشوف أي حاجة.

- نادية برضو زي مامتك؟

- نادية مش بتؤمن بالخرافات والأعمال والدجل زيها لكن برضو مش مقتنعة بإن في حاجة اسمها أرواح نقدر نشوفها. ماكانتش بتعاملني على إني ملبوس على أدّ ما بتعاملني على إني مجنون، بس الكلام ده كله كان زمان، دلوقتي أنا بعرف أحتفظ بأشباحي لنفسي.

- يعني ما بتحكيش لأي حد على اللي بتشوفه؟

- بحكي لقطز وتيتة عند اللزوم.

انبعث صوت جدتي في نفاد صبرٍ من المطبخ قائلة:

- نووووووح، لو ماجتش هخلص مربي التوت كلها.

- جَي يا سونة.

نهضتُ فقالت بشرى: مش هتكمل لي باقي قصتك؟

- هفطر وآجيلك، مربى التوت بتناديني.

قد أتظاهر بالضيق والانزعاج، ولكنني أحب التحدث مع أرواح الموتى، فَهُم يفهمون ما لا يقدر الأحياء على استيعابه.

القضية الثانية

(كريم كراميل)

(1)

أصبحت تالا الصغيرة صاحبة الضفيرتين، كالمدمن الخطر.

فور أن وصلتُ شقة نادية، قامت ذات الأعوام الخمس بفتح الباب وجذبتني من يدي بحماس المجانين إلى غرفتها التي تمتلئ حوائطها الوردية بملصقات الباليرينات النحيفات ثم همسَتْ لي وهي تلتفت حولها كاللصوص: جبت الحاجة؟

أخرجتُ من جيبي السكاكر التي تعشقها ولوحَ شوكولاتة كبير فابتسمَتْ كاشفةً عن غمازتيها الملائكتين ثم قبَّلتني فقلتُ لها:

- هتخبي الحاجات دي فين، يا زقردة؟

- في الدبدوب.

اتجهت صوب دُمية دُبٍّ كبيرٍ. فتحت السحَّاب الخلفي للعبة ودفست السكاكر وسط القطن المنفوش ثم أعادت غلق ظهر الدب قائلة:

- إوعى تقول حاجة لمامي.

- عيب عليكِ.

فتحت نادية الباب بغتةً؛ فقامت تالا بمعانقة دُميتها عفويًا حتى لا تشك بها والدتها، ولكن نادية نظرت لكلينا من خلف نظارتها الكبيرة قائلة كالمخبر السِّري:

- بتعملوا إيه؟

أسرعت تالا مجيبة ببراءة: بوري الدبدوب الجديد لنوح.

رفعت حاجبها بشك ثم قالت: الدبدوب؟ طب يلا، الغدا جاهز.

***

في الغالب، لا تدعوني نادية للغداء إلا إذا كانت تحضر رواية بوليسية جديدة مع زوجها وتود الحصول على بضع معلومات أو تعديلات تقنية تخص أسلوب المباحث.

وقد كان ما ظننته، ففور أن أكلنا الطعام المحروق جزئيًا واحتسينا الشوربة ذات الملح الزائد، وبعد أن ضربتْ نادية التوأمين اللذين نعتا طهيها بالـ "قرف" ثم بصقا ما أكلاه على السجاد وتذمرت "تالا" من طعم السبانخ الذي أقسمت مرارًا وتكرارًا أنها تكرهه، وبعد أن تجاهل طارق الزيت المتقطر من جناح الدجاجة المحمرة التي يأكلها؛ لملمت نادية الأطباق واحتجزتني مع زوجها بغرفة السفرة بعد أن أعدت ثلاثة أكواب من القرفة باللبن التي أقبل عليها طارق بينما قلتُ:

- مابحبش القرفة.

- دي مفيدة. اشرب، اشرب.

- هو أنا عيل من عيالك عشان تشربيني بالعافية؟!

رمقتني رافعة حاجبها الأيمن ومضيقة عينها اليسرى وقد اتسع ثقبا أنفها وكادت أن تخرج نيرانًا من فمها كالتنين المجنح فآثرتُ السلامة وسلكتُ مسلك طارق صاحب شعار "حاضر بتريح".

- حاضر.

أخذتُ كوب القرفة الساخن فابتسمَتْ برضا وراقبتني كمن ينتظر أن تبتلع ضحيته السم.

- ها، حلوة؟

- أكيد مش جايباني عشان أقولك رأيي في القرفة باللبن اللي إنتِ وجوزك بتاخدوها حقن دي. إنجزي عشان عندي شغل.

- عندك حق سحبت الكوب من يدي قائلة: خلينا نوفّر الوقت. أنا وطارق عايزين..

قاطعتُها ضجرًا: أبص على اللي انتوا كاتبينُه.. وريني.

فتحت اللاب توب ووضعته أمامي على نَصٍ من أربعين صفحة فقلتُ:

- أنا هقرا كل ده؟

- لأ.. الحتة دي بس.

حددت لي خمس صفحات عن ضابط بالمباحث الجنائية يتفحص موقع الجريمة وقد امتلأ المشهد بالأخطاء التي يقع بها مخرجو السينما ومؤلفو الروايات البوليسية فعلقتُ قائلًا:

- أنا فاهم أن قصدكم تطلعوا الظابط روِش بس ماحدش بيولَّع سجاير ويرمي الطفي على السجادة في موقع جريمة ولا بيقلِّب في الجثة كده وما بيلمسش أي حاجة في الشقة من غير جوانتي.. كده موقع الجريمة اتلوث وبصماته بقت في كل حتة.

قال طارق: على فكرة، أنا قُلت لها كده بس هي...

أخرسته نظرة نادية المرعبة فبلع لسانه حفاظًا على سلامته بينما سألتني:

- طب في إيه تاني؟

- مش بنحرك أي دليل إلا لما يتصور في المكان اللي لقيناه فيه ولو أدلة بيولوجية مش بنحطها في كيس بلاسيتك عشان بيعمل رطوبة ممكن تبوّظ الدليل. النوعية دي من الأدلة بنشيلها في ظرف أو نوع معين من الورق.

ارتشف طارق قرفته قائلًا: طب والله قُلت إن رطوبة البلاستيك هـ...

قاطعته نادية: إنت بتكتب ملاحظاته ولا مقضيها تطبيل؟

- بكتب أهو والله. قالها منكبًا على دفتره العملاق الذي يشبه دفاتر السجل المدني.

- لقيت حاجة تاني يا نوح؟

- لأ. الموضوع شكله مشوِّق بس ركزوا في التفاصيل دي.

- ماشي بس...

سمعنا بالخارج شيئًا زجاجي يتهشم، فاقتربت نادية من الباب صائحة:

- كسرتوا أيه، يا ولاد الـ...

استوقفها طارق قائلًا: إستني، أنا هشوف في إيه.

خرج وأوصد الباب خلفه فقلتُ بسرعة:

- طب أتكل أنا على الله قبل ما تبلعي عيالك.

- لأ، إستنى. عايزاك في موضوع. خالتو سوسن عاملة حفلة عشان عيد ميلاد ماما و...

- جوز أمك هيبقى موجود؟

زفرتْ قائلة: خلاص بقى يا نوح. إحنا بقالنا سنين على الوضع ده و...

- وكلنا مستريحين. هي مرتاحة مع جوزها الدكتور فازلين وأنا مرتاح كده.

- بس دي ماما، يا نوح. المفروض تتقبل إن إنت وجوزها تقعدوا على ترابيزة واحدة عشان...

- مش إنتِ متقبلة إن واحد تاني ياخد مكان أبوكِ الشهيد ومخلِّية عيالك يقولوا له 'يا جدو' و...

احتدت نبرتها قائلة: ماتلخبطش في الكلام يا نوح.

- لا ألخبط ولا ما ألخبطش يا نادية. فُكك.

- بكرة تبقى أب وتعرف يعني إيه ابنك اللي من لحمك ودمك يقاطعك.

- أنا مش مقاطع أمك لكن مش هبقى في مكان واحد مع جوزها ده.

– مش مقاطعها؟ إنت آخر مرة سألت عليها كان إمتى؟

– وهي التانية مش بتسأل عني.

– هو النِّد بالند؟

– إذا كان هي كأمّ قلبها قسي عليَّ، أنا مطلوب مني إيه؟

– مطلوب إنك تطلَّع السواد اللي جواك ده من ناحيتها.

ضحكتُ متهكمًا: سواد؟! أنا ممكن أسامح أمك على إنها عيِّشتني طفولة مقرفة كلها شعوذة ودجالين وجهل وطلعتني ملبوس قُدَّام عيلتها وخلاتي بقوا بيخافوا ألعب مع عيالهم ويشغَّلوا قرآن لما أدخل بيوتهم كإني شيطان.. إنما تنسى أبويا وتتجوز بعده بسنتين تلاتة! آسف.

– اغفر، يا نوح.. اغفر عشان ترتاح.

– الغفران صعب يا نادية ولو ما اتطلبش يبقى مستحيل.. أمك عمرها ما اعترفت بغلطتها في حقي ولا بإنها فرطت فيَّ عشان تتجوز.

– فرطت فيك؟ إيه الكلام الأوفر ده؟!

– أوفر؟! هي اللي اختارت. أنا قُلت لها لو اتجوزتِ هعيش مع تيتة وهي اختارته و...

– مش من حقك تخيّرها بينك وبين سعادتها.. ماما ليها غلطات كتير بس بتحبنا بجد وبتخاف علينا من الهوا الطاير و...

– نادية، صباحك مربَّى وماتفصلنيش منك.

– خلاص يا نوح اتفلق، بكرة تندم.

دخل طارق وقال لاهثًا:

- يحيى وياسر فتحوا النيش وكسروا طقم الخزف.

تحولت ملامح نادية الناعمة إلى وجه الساحرة الشمطاء وبرزت عروق عينيها الحمراء صارخة:

- إيييييه؟! النيييش؟!

- أنا حاولت أتدارك الأمر بس هُمَّا خرجوا عن السيطرة.

صرخت صرخة تشقق لها السقف واهتزت لها الأرض وارتعشت لها المصابيح:

- النيييش...النيييش، يا ولاد الكلب.

خرجت بثورتها المتزايدة بينما تنفَّس طارق الصعداء وعاد لدفتره الكبير قائلًا:

- أنا كده عملت اللي عليَّ.

نظرت له بازدراء قائلًا:

- شعورك إيه وإنت أب واطي بيسلِّم عياله تسليم أهالي؟

- مش أحسن ما يسلموني أنا؟ دول مش بس فتحوا النيش المبجل، كمان كسروا طقم الخزف اللي بالشيء الفلاني...هُمَّا كده، يتفرجوا على أي فيلم أكشن ولا كارتون سوبر هيروز فيتجننوا ويقلدوه ويكسروا في الشقة ويلطشوا في أختهم. أتى صوت بكائهم مخلوطًا بسباب ولعنات نادية فابتسم قائلًا برضا: والله الواحد بيتوغوش لو عدى يوم كده من غير ما نادية تطحن العيال ضرب.

***

لا أتذكر مرة دخلت فيها المكتب دون أن تفوح منه رائحة الطعام، فقطز يسلي وقته بشيئين لا ثالث لهما: القراءة والطعام.

فلمعدته قدرة خارقة على هضم أي نوع من الأكل ومع ذلك وزنه لا يزيد جرامًا واحدًا.

كان كعادته يأكل على مكتبي حتى لا يتسخ مكتبه هو؛ فعلى الرغم من عشقه لأكل الشارع وعشوائية انتقائه للطعام، إلا أنه في غاية النظافة والترتيب ولا يطيق أن يجد بقعة على مكتبه؛ لذا، لا مانع لدي لتحويل مكتبي إلى سُفرة.

خلعتُ سترتي وجلستُ على المكتب أمامه زافرًا:

- عامل حسابي في الأكل؟

أشار إلى الكيس البلاستيكي الذي يتألق عليه شعار "فلفلة" البرتقالي؛ ففتحته لأجد ثلاثة سندويتشات كبيرة، ألتقطتُ منهم واحدًا بينما قال:

- أنا قُلت أكيد مش هتاكل من طبيخ نادية وهتيجي جعان.

- أكلها يقرف الكلب. مش فاهم طارق مستحمل إزاي؟!

- اتعود.. صحيح، هتعمل إيه النهارده؟

- هعمل إيه في إيه؟

- مش هتحتفل بالسنة الجديدة؟

- يعني ألبس طرطور مكتوب عليه 2017 ولا أنفخ بلالين هيليوم؟

- إيه السُكر ده، يا نوح؟

– عايزني أقولك إيه؟ الناس كلها بتحتفل وترقص وتتبسط وإحنا في القسم بناكل شاورما فراخ.

– مالها شاورما الفراخ؟ بتحتوي السناجل اللي زينا. مسح فمه بالمناديل المبللة مضيفًا: بمناسبة السنجلة، مش بتتمنى تقابل فتاة أحلامك في السنة الجديدة؟

– فتاة أحلامي؟! الكلمة دي اتلغت من 95.

– يا سيدي خلاص، مش بتتمنى تلاقي المُزة الجامدة.. حلو كده؟

– بلا مُزة بلا زفت. أنا مش عايز من السنة دي غير حاجتين اتنين.

– قول.

– ترقية ومُنتَج يقضي على الصلع. شعري بدأ يخف وإحنا عيلة رجالتها صُلع و...

فُتح الباب بهجمية ليدخل الرائد صلاح الشُبكي قائلًا بسخافته:

– هابي نيوير لسيادة النقيب لمونة وزميله النقيب نسكويك.

هنا أدركتُ أنَّ لي أمنية ثالثة: رصاصة في منتصف جبهة صلاح ترديه قتيلًا.

لم أجبه بينما تمتم قطز همسًا: هابي زفت على دماغك.

جلس اللزج على الكرسي ومدَّ يده إلى كيس الطعام بلا استئذان ساحبًا ساندويتشًا تفحص محتوياته قائلًا:

– إيه ده؟ بانيه؟ إيه أكل الفرافير ده يا ابني.

انتشل قطز الساندويتش من بين أصابعه القصيرة بعنف قائلًا:

- خلاص، ما تاكلهوش.

استعاد صلاح الساندويتش بغوغائية قائلًا:

- يا عم بضحك معاك.

ضحك ضحكته الصفراء ثم قضم بوحشية ومضغ بطريقة حيوانية وأخذ يتكلم والطعام يتطاير من بين شفتيه والمايونيز يسيل من جانب فمه قائلًا:

- هتسهروا فين الليلة دي؟ أصدقاء السوء هياخدوني كباريه إنما إيه.. أخذ قضمة أخرى وأكمل كلامه متباهيًا: إبليس يتكسف يقعد فيه وهتحيي السهرة الرقاصة الكرباج دي.. اسمها إيه؟

لم نعره اهتمامًا ولكنه استطرد: هتبقى سهرة ولا جهنم الحمرة.

قلتُ ضجرًا: طب ما تاخد الساندويتش تاكله في الطريق عشان تلحق جهنم من أولها؟

- ما أنا خلاص خلصت. كوّر ورقة الطعام وألقى بها أرضًا ثم مسح فمه بكُم قميصه الأحمر الرخيص مضيفًا: أنا سايب القسم أمانة في إيديكم يا ولاد.. عايز الأمن مستتب نهض متجهًا للباب: سلام، يا كئيب منك له.

خرج بضحكته النابحة وعطره المزعج بينما قال قطز منتشلًا ورقة الطعام من على الأرض:

- ياكش تموت هناك عشان تبقى موتة نجسة.

***

عندما أشعر بالضجر أخرج من المكتب وأتمشى بطرقات القسم.

أنزل عدة سلالم وأصعد أخرى، بينما يظل قطز يقرأ في أحد الكتب التاريخية أو الروايات الرومانسية سرًا، ففي هذه الليلة كان الوضع هادئًا وآمنًا؛ فما من جريمة قد ترتكب في هذا التوقيت الذي ينشغل فيه الناس بانتظار العد التنازلي حتى تدق الساعة الثانية عشرة مستقبلة سنة جديدة أجهل ملامحها ولا أنتظر منها سوى ترقية وتقييم ممتاز بملفي.

عدتُ إلى المكتب بينما أضيئت السماء بالألعاب النارية التي لم تتوقف عن الفرقعة لقرابة خمس عشرة دقيقة وبينما كنتُ على وشك دخول الحجرة إذ بقطز يخرج متعجلًا:

– تعالى، فيه بلاغ جالنا.

– ما تقولش الراجل العجوز اللي بيشتكي من الدوشة ده تاني.

– دوشة إيه، دي جريمة قتل.

– قتل؟ حد يتقتل دلوقتي؟

– ده مش أي حد، دي مرات يوسف المنياوي.

– أنا عارف الاسم ده.

– ده المنتج، يا عم اللي كان متجوز نادين المندلي.. الممثلة الشقرة أم عيون عسلي دي.

صُدمتُ قائلًا: إيه؟ يعني نادين المندلي ماتت؟ ده أنا كنت لِسَّه متفرج لها على مسلسل و...

– لأ، مش نادين اللي ماتت. نادين ويوسف اتطلقوا من سنة، إنت مش متابع ولَّا إيه؟

– وأنا مالي أنا مين اتجوز ومين طلق.

– يوسف ونادين اتطلقوا وهو اتجوز مُزة بُلطية كده بتطلع معاه في كل حتة، هي دي بقى اللي ماتت. حكَّ ذقنه في طريق خروجنا من القسم مضيفًا: أكيد نادين قررت تنتقم من يوسف عشان اتجوز غيرها. أصل قصة حبهم كانت عنيفة.

لا ينفك قطز عن تحليلاته العاطفية ذات الطابع الدرامي.

(2)

هكذا قَصّوا علينا الأمر:

بشارع بهجت علي في الزماك، اعتاد يوسف المنياوي الاحتفال بالسنة الجديدة في فيلته الفارهة ذات الأعمدة الإغريقية العالية والسقف الذي يتخذ شكل القُبَّة والحديقة التي تزدحم بالأشجار، فيجتمع المشاهير بالصالة الرخامية الملساء أسفل الثريا المنيرة ثم تنطفئ الأضواء ويبدأ العد التنازلي حتى تدق الساعة الثانية عشرة معلنةً عن عامٍ جديدٍ ولكن تلك المرة أعلنت الساعة عن جثة.

بعد أن هدأت الموسيقى وانطفأت الأضواء وبدأ العدُّ، سمع الحضور صريخًا يأتي من شُرفَة الطابق الثاني للفيلا، وقبل أن يندفعوا صوبَ الصوت إذا بهم يرون جثة ديدا – زوجة يوسف – تسقط من بلكون غرفتها لتستقر فوق درجات سلم مدخل الفيلا فينفتح رأسها لافظةً أنفاسها الأخيرة.

***

كانت جثة لامرأة قصيرة في الثلاثينيات، لها جسد ضئيل ولكن ملفوف وتكثر به الانحناءات.

صاحبة شعر قصير وعينين واسعتين وساقين آية في الجمال يظهران من ثوب نومها الأحمر القصير الذي لم يخف أيًّا من مفاتنها.

انتشرت الدماء المنسابة من رأسها على السلالم الرخامية بالمدخل، ولكني لاحظتُ طعنةً في بطنها.

ظلَّ قطز ينظر للشرفة العالية التي سقطت منها ثم إلى جثتها التي التفَ حولها رجال الطب الشرعي والبحث الجنائي ملتقطين صورًا ومُحددين موقعها ثم قال مفكرًا:

- دي اتشقلطت في الجو.. تفتكر مين اللي زقَّها؟

- أكيد نفس الشخص اللي طعنها في بطنها.

قال حسني بينما حُمِلَت جثة ديدا لتنقل إلى المشرحة:

- وفي ضهرها كمان.. في طعنة في البطن والضهر. هنشتغل في الجثة وهنعرفكم الجديد.

بدأنا نحقق مع الحضور وقد رأوا جميعًا نفس المشهد: صريخ ثم سقوط الجثة عند سلالم المدخل عدا المطربة الشهيرة دولِّي ذات الأعين الواسعة والشعر الغجري التي كانت جالسة على كرسي بالصالة، مرتجفة ولا تتوقف دموعها عن الانهمار وهي تقول بصوتها الرقيق:

- أنا طلعت الجنينة بعيد عن الدوشة عشان أكلم جوزي في أمريكا وأقوله هابي نيو يير فسمعت صريخ، ببص لقيت ديدا بتصوَّت من

بلكونة أوضتها وبتقول إلحقوني وفجأة سندت على السور كأن أغمى عليها أو نامت أو...

- أو حد مثلًا طعنها من ضهرها؟

- أيوه، بالظبط.. بعدها اتقلَبِت، كأن حد رفع رجليها من على الأرض ونزلت على السلالم ودماغها اتفتحت أخذت تبكي مرتعشة: المنظر كان فظيع.. مش قادرة.

قال قطز: معلش، يا مدام دولِّي. هدِّي نفسك.. أنا من أشد معجبينك والله.

قدَّم لها منديلًا فأخذته ومسحت دموعها بطرفه قائلة بأنوثة: ميرسي خالص.

- لا ميرسي على واجب. والله لولا الظروف كنت خدت معاكِ سيلفي ضحكتْ فأضاف: أيوه كده، اضحكي خلي الشمس تطلع.. أنا بحب أغانيكِ أوي. ثم كالأبله بدأ يدندن إحدى أغانيها التي لا معنى ولا إيقاع لها فوكزته هامسًا:

- إنت أهطل يلا؟ فين هيبتك كظابط!

- يعني يوم ما أشوف كل النجوم دول، يبقى عشان تحقيق في قضية قتل؟!

تجاهلتُ صِبيانيته والتفتُّ لدوللي قائلًا: ما شُفتيش حد في البلكونة قبل أو بعد ما القتيلة وقعت؟

- لأ، ما شُفتش حد خالص.

- تمام، شكرًا ليكِ.

ما إن التفتنا حتى وجدنا يوسف المنياوي يقترب منا.

رجل حليق الذقن طويل القامة في مقتبل الأربعينيات، يرتدي نظارة نظر باهظة وبدلة سوداء أنيقة تكشف جسده الممشوق وقد كانت له ملامح راقية تليق بممثلي الستينيات عدا كونه صاحب شعر رمادي خفيف يكاد لا يُرى بالعين المجردة، مما زاد عمره بضعة أعوام.

بدا مذهولًا ومصدومًا ولكن ليس بالقدر الذي يجب أن يكون عليه من قُتِلَت زوجته للتو.

- الباقية في حياتك يا أستاذ يوسف.

- حياتك الباقية. ينفع ضيوفي يمشوا دلوقتي ويبقوا يجوا لكم القسم بكرة عشان الوقت اتأخر؟

اندفع قطز قائلًا: طبعًا، إحنا برضو تهمنا راحة ضيوفك.

- أنا بس مش عايز شوشرة أكتر من كده، كفاية اللي الصحافة هتكتبه و...

قاطعته قائلًا: حضرتك كنت فين لما المدام وقعت؟ ضيوفك بيأكدوا إنك ماكنتش في الصالة.

أجاب بهدوءٍ: زينب قالت اطلع أوضة ديدا عشان في حاجة ضرورية.

- زينب مين؟

- الهاوس كيبر.

– يعني حضرتك طلعت أوضة المدام في نفس اللحظة اللي وقعت فيها؟

– مش بالظبط. أنا وصلت الكوريدور، سمعت صريخ ولقيت الباب مقفول من جوه. خبَّطت، ماحدش فتح، فكسرت الباب لكن مالاقتش حد في الأوضة فنزلت تاني بسرعة.

سألته مندهشًا: يعني الجريمة حصلت والباب مقفول من جُوَّه ولما دخلتوا مالقتوش حد؟

– مظبوط.

– فيه أي باب تاني للأوضة؟

– إطلاقًا.

سأله قطز باهتمامٍ: حضرتك بتشك في حد معين؟

– أنا ماليش أعداء، الناس كلهم حبايبي.

– والمدام؟

– ليها مشاكلها العادية بتاعت الستات، إنما ماتؤديش للقتل نظر حوله ثم قال: لو تسمحوا لي بس أقول لضيوفي يروَّحوا وأرجعلكم تاني.

قال قطز: طبعًا، طبعًا. اتفضل.

قبل أن يذهب استوقفته قائلًا:

– معلش، يا أستاذ يوسف بس هي إيه الحاجة الضرورية اللي الشغالة خلتك تسيب ضيوفك في أهم لحظة في الحفلة عشانها؟

حك أنفه قائلًا بعينين مرتبكتين: مش عارف، مالحقتش أسألها.

ثم أدار ظهره وابتعد فقلتُ لقطز: الراجل ده بيكدب.

– عشان هرش في مناخيره، صح؟ تفتكر هو اللي عملها؟ ما هو اختفى في وقت وقوعها ومش منطقي يعني يبقى واحد عامل حفلة مكلفة كده ويسيبها في ذروتها عشان الخدامة نادته.

– اللي مش منطقي أكتر هو إن مراته اللي بتطلع معاه في كل المناسبات والحفلات ماتبقاش حاضرة الحفلة المعمولة في بيتها.

– مش حاضرة إزاي؟

– الجثة لابسة قميص نوم.. إيه اللي يخليها تسيب حفلة جوزها وتطلع تنام قبل الكاونتداون؟

وضع قطز يديه عند خصره قائلًا: سؤال يستحق التأمل.

***

ارتدينا القفازات ودخلنا موقع الجريمة وهي غرفة نوم أنيقة كل ما بها غالي الثمن وقابل للكسر.

يتوسطها سرير عالٍ، وبأقصى يمينه حمام بابه مغلق، وعلى يساره الشرفة الكبيرة التي سقطت منها الضحية وقد كان سور البلكون عاليًا يصل إلى بطن القتيلة قصيرة القامة وعليه بقع دمائها ودائرة كبيرة من الدم على الأرضية حيث طعنت بظهرها قبل أن تُلقى من الشرفة.

وجدنا حسني ورجاله يجمعون الأدلة وقد لاحظنا كوبًا زجاجيًّا

مكسورًا بجوار الحائط وطبق فاكهة كبيرًا تناثرت ثماره على السجاد التركي بينما استقر الصحن بالقرب من السرير الذي تدلت أطراف ملاءته على السراميك البارد.

علقتُ قائلًا: كان في خناقة في الأوضة.

هز قطز رأسه موافقًا بينما أشار إلى تفاحة حمراء ملقاة أرضًا وقال:

- بص كده، التفاحة دي نصها متقشر.

فهمتُ ما يرمي إليه فدققتُ النظر مضيفًا: يعني طبق الفاكهة كان فيه سكينة التفتُّ لأحد رجال البحث الجنائي وسألته: في حد لقى سكينة هنا؟

- لأ.

قال قطز: يبقى هو ده سلاح الجريمة اللي اتطعنت بيه الضحية.

- والسلاح ده مش موجود.

نظرتُ لبصمات الأقدام التي تحمل القليل من الطين على السجاد الغالي ثم أتبعتها بنظري لأجد أثرًا آخر عند باب الحمَّام؛ فوقفتُ عند عتبته لأجد بقعة داكنة من الدماء.

لقد طُعِنَت ديدا الطعنة الأولى ببطنها في هذه المنطقة بالتحديد، ثم ركضت صوب الشرفة لتستنجد فطعنت الطعنة الثانية ثم تم إلقاؤها من البلكون.

سألتُ حسني قبل أن أفتح باب الحمَّام:

- لقيتوا حاجة في الحمَّام؟

قال حسني: نفس آثار الرجلين اللي على السجاد موجودة على طرف البانيو.

نظرتُ للحمَّام النظيف بشكل مبالغ فيه ولم أهتم بتفاصيله الراقية، بل بالنافذة المفتوحة فوق البانيو.

اقتربتُ من النافذة الكبيرة فاكتشفتُ أنها تطل على شجرة ظِل من السهل تسلقها، فإذا قام القاتل بالاستناد إلى طرف البانيو والجلوس على سور النافذة سيصل بيُسرٍ إلى الشجرة المتينة المؤدية إلى الجزء الخلفي من الحديقة المطل على الجراج الخاص بالفيلا.

هكذا اتضحت طريقة الدخول والخروج دون الاستعانة بالباب.

ديدا كانت نائمة بغرفتها وأوصدت الباب من الداخل – لسببٍ لا أتبينه بعد – ثم تسلَق القاتل الشجرة ودخل إلى الغرفة وقتلها، ثم خرج بالطريقة نفسها، وما يثبت نظريتي تلك الآثار بالحمام التي تحمل بقعًا من الطين ولا شك أن منبعها هو الحديقة.

دققتُ النظر فوجدتُ مسمارًا بارزًا بطرف النافذة الخشبي جعلني أخمن أنَّ مَن تسلق الشجرة ودخل من الشباك قد أصيب بجرح أو على الأقل تمزق سرواله.

– بص لقيت إيه؟

قالها قطز مشيرًا إلى علبة السجائر والقداحة الموجودة عند طرف السرير قائلًا:

– علبة كليوباترا وولاعة بلاستيك رخيصة. ما أظنش إن دول يخصوا يوسف.

وضعتُ يدي بجيبي قائلًا: تفتكر دي الحاجة المهمة اللي الشغالة شافتها وندت يوسف عشانها؟

– نادته عشان علبة كليوباترا؟

– عشان اللي بيشرب الكيلوباترا يا أهطل.

– كيييلوباترا؟! اسمها كليوباترا. كليو مش كيلو، بطلوا جهل بقى.

– طب ركز يا سفير ماركات السجاير في الوكسة اللي إحنا فيها.

زفر قائلًا: قصدك يعني إن مراته كانت بتخونه والخدامة شافتهم ونادت على يوسف عشان يقفشهم؟ حكَّ ذقنه بينما هززتُ رأسي مؤكدًا ثم أضاف: فدمه اتحرق وما قدِرش يسيطر على نفسه وسحب أول سكينة شافها قدامه...

– وطعنها مرة عند باب الحمَّام فجريت البلكونة تصرخ وطعنها الطعنة التانية ورماها منها. نظرتُ صوب الشرفة مفكرًا: بس يوسف طويل أوي. لو هو اللي عملها كانت دولِّي شافته.. القاتل لازم يكون في طول ديدا أو أقصر بحيث إن ماحدش يشوفه وهو واقف وراها، ويكون خفيف الحركة فيقدر يهرب من شباك الحمَّام ويتسلق الشجرة.

– شباك الحمَّام؟

نظر صوب الحمام فلاحظ الشباك الكبير المفتوح

– كدة الرؤية وضحت. القاتل قصير ورفيع.

– وبنطلونه مقطوع.

***

يعمل بالمنزل بستاني مسن وسفرجي وثلاث خادمات تحت إشراف زينب كبيرة الخدم التي لم نلقَها بعد، ولكننا كنا محظوظين لاستجواب ألطاف، أصغر الخادمات سنًا، ولكن أكبرهن حجمًا وأكثرهن كلامًا؛ فقد وهبها الله لسانًا نشِطًا لا يعرف الراحة.

– أنا هحكيلك، يا باشا. وداد كانت...

قاطعها قطز: وداد مين؟

– يييييه يقطعني، قصدي الست ديدا. أصل أيام ما كانت دادة كان اسمها وداد بس بعد ما البيه اتجوزها ونضَّفها بقت ديدا هانم مصمت شفاهها: حظوظ.

سألها قطز منبهرًا: ديدا كانت دادة؟

– أوماااااال؟! أنا هحكيلك من الأول أخذت نفسًا عميقًا استعدادًا لماراثون النميمة الذي ستبدأه: أيام ما البيه كان متجوزالنجمة السُكرة نادين هانم كانت وداد المربية بتاعت فريدة بنت نادين ويوسف بيه.. الست نادين كانت مهتمة بالسيما وأهملت البيه في الفترة الأخيرة، قوم وداد الحية تلف على يوسف بيه وتعض الإيد اللي اتمدت لها وتدحلب وتخليه يتجوزها عشان طبق كريم كراميل.

– كريم كراميل؟!

– أنا أفهِّمك. ست فريدة تعشق الكريم كراميل زي عينيها بس ماحدِّش كان بيعرف يعمله على مزاجها غير وداد اللي ما تتسمى فقِبلوا يشغلوها عشان فريدة هانم شبطت فيها، وحتى البيه اللي كان مايطِقْش زفارة البيض، العقربة عرفت تحبِّبه فيه، وبعد كده لما نادين هانم كانت مسافرة وداد غوِتْ البيه ودبِّسِته والمدام نادين عرفت وكانت خناقة لربّ السما فاتطلقوا واتجوز وداد المقشفة. تقولش عاملة له عمل، يا باشا؟

قلتُ لها: ده إنتِ معبية منها بقى.

– هو في حد في البيت ده طايقها؟ دي مارحمتش لا صغير ولا كبير حتى البيه نفسه في الفترة الأخيرة بقى بيتخانق معاها كتير وكان هيطلقها...آه، أنا سمعتهم إمبارح بوِدْنِي، قالَّا نتطلق وأدِّيكي الفلوس اللي انتي عايزاها. شكله كده والله أعلم حن للمدام نادين، أنا كنت بسمعه كتير بيتسحب عشان يكلمها في السر ووعدها إنه هيطلق اللي ما تتسمى، بس وداد قالت له تطلقنى إزاي وأنا حامل، البيه وشه جاب ألوان وقرر إنه يستحملها عشان العيل اللي في بطنها ومش بقى تتعظ وتصلح معاملتها مع البيه؟ كل شوية خناق. دي حتى اتخانقت معاه ونكدت عليه في الحفلة.

– إمتى بالظبط؟

– قبل ما يطفوا الأنوار بيجي نُص ساعة. شُفتها متزربنة ويوسف بيه وراها في الطرقة. كنت أنا بجيب الكريم كراميل للهانم الصغيرة في أوضتها، وسمعته بيقولها إنتِ مش هتبطلي غيرة ونكد، ماينفعش تمشي

في نص الحفلة، راحت فاتحة فيه ومزعقة وقالت له يعني طليقتك تبعت لك كلام حب ومش عايزني أتعصب، وبعدها رزعت باب أوضتها والبيه نزل وأما أنا طلعت من عند الهانم الصغيرة هي قفشتني وقالت لي روحي يا زفتة جبيلي كوباية اللبن بتاعي وطبق الفاكهة فجبتهم ودي كانت آخر مرة أشوفها يا باشا.

– وشكل سكينة الفاكهة دي إيه؟

– سكينة بمبي كده عليها ورد.

– يعني وداد كانت في الحفلة وبعدها اتخانقت مع يوسف وطلعِت أوضتها ومانزلتش تاني؟

– أنا ماشُفتهاش نزلت تاني.

– طب تفتكري مين ممكن يبقى قتلها؟

– بُص يا باشا. هي منكدة علينا عيشتنا كلنا بس ماحدش مننا يقدر يئذيها، إحنا غلابة والله.

– مش لازم يبقى حد منكم، بس بتسمعيها بتتخانق مع حد عامة؟

صمتت قليلًا ثم أضافت مفكرة: أصل مافيش حد مش بتتخانق معاه، يا باشا. ده حتى إمبارح الصبح دبت خناقة كبيرة مع شكرية و...

– شكرية مين؟

– أختها الكبيرة. شغالة ممرضة في القصر العيني وكانت بتمرض البيه الكبير أبو الأستاذ يوسف الله يرحمه وهي اللي جبت لنا المدعوقة أختها تشتغل.

– اتخانقوا على إيه؟

– ما أعرفش، تلاقيها كانت عايزة منها فلوس. ما هي اتعودت تغرف من مال البيه وتدي لأختها. أنا لحقت الخناقة من آخرها وسمعتها بتشرشح وتقول ده أنا أفضحك وأشرب من دمك وشكرية معروفة إنها كلبة فلوس وتاكل مصارين اللي قدامها عشان القرش وبعدين بتغير من أختها عشان اتجوزت البيه وبقت في الهلومة دي كلها وهي لأ.

– إنتِ شايفة إن شكرية ممكن تقتل أختها؟

– يمكن. يا باشا، دي عيلة بنت حرام ماتعرفش ربنا.

***

جعلنا يوسف يتصل بشكرية ويطلب منها الحضور العاجل بينما سألته:

– هو حضرتك والمدام اتخانقتوا ليه؟

قال بتلقائية: غيرة ستات. نادين بعتت لي بوكيه ورد فديدا شافت الكارت وأتعصبت.

– بس كده؟

– ديدا عصبية وبتكبَّر كل الأمور.

– مش غريبة إن نادين تبعت لك بوكيه بعد الطلاق العنيف اللي حصل ما بينكم؟

– عنيف؟! بالعكس، إحنا طلاقنا كان مُتحضِّر جدًا وفضِلنا أصدقاء عشان مصلحة فريدة.

– بس لما يكون سبب الطلاق الخيانة مع الدادة، أكيد العلاقة هتبقى صعبة.

ارتبك وخلع نظارته ليفرك عينيه ثم أعاد ارتداءها وقال بنبرة متوترة:

– هو طلاقي له علاقة بالجريمة؟

– وداد لو ماكانتش حامل كنت طلقتها ورجعت لمدام نادين، مظبوط؟

ارتبك ثانية ثم قال: هو في مشكلة في ده؟

– هو حضرتك بتدخن سجاير إيه؟

تعجب من شذوذ السؤال ولكنه أجاب مترددًا: أنا بشرب سيجار مش سجاير هو...

– والمدام بتدخن؟

– آه، دافيدوف.. هو فيه حاجة؟

– لا، أبدًا.. هو حضرتك أعلنت حَمل مدام وداد؟

– لأ. هي حبت نستنى شوية عشان بتخاف من الحسد.

– ومدام نادين عارفة إنها حامل؟

– لأ، بس حضرتك بتسأل ليه؟

– مدام نادين كانت فين في توقيت الحفلة؟

– نادين عندها تصوير في أسوان وهترجع آخر الأسبوع.

– متأكد إنها كانت في أسوان النهارده؟

- متأكد طبعًا.

- تمام.. ممكن تنادي لنا على الهاوس كيبر؟

- أكيد، بس هو حضرتك بتشك في حد معين؟

- في الوقت الراهن، كل حد دخل البيت ده موضع شك.

***

انتظرنا بالصالون الذي يغلب عليه اللون الذهبي والتماثيل واللوحات الفنية المجرَّدة التي ظلَّ قطز يحدق بها بإعجابٍ فأشعلتُ سيجارة بينما قال:

- أنا حاسس إن يوسف مش متضايق. بذمتك ده منظر واحد مراته الحامل اتقتلت؟!

- يمكن يكون تحت تأثير الصدمة، أو لما صدق خلص منها.

- تفتكر قتلها عشان يرجع لمراته القديمة؟

- كله هيبان، إتّك على الصبر.

- طب علبة السجاير دي بتاعة مين؟ أكيد ماحدِّش من اللي كانوا في الحفلة بيدخَّنوا كليوباترا.

- الفيلا مافيهاش غير تلات رجالة، الشيف وده الكل شهِد إنه فضِل في المطبخ طول الحفلة والجناييني وده راجل عنده ستين سنة وماكانش موجود أصلًا، كده فاضل مين؟

- يوسف المنياوي؟!

- لأ، فاضل السواق.

قاطع حديثنا دخول امرأة قصيرة بمقتبل الخمسينيات لها وجه شديد الصرامة.

حاجباها الرفيعان معقودان، وشعرها الذي تخلَّلَته الخصلات بيضاء معقوصًا بشدة وتضغط على فكها بقوة واضحة ويداها مضمومتان وقبضتاها مغلقتان وقد اقتربت بخطى ثابتة ورأس مرفوعٍ، ونظرت إلينا بشموخ ملكة مبجلة ثم قالت بنبرة راقية:

- بونسوار، مسيو يوسف قالي إن حضراتكم طلبتوني.

أشار قطز لكبيرة الخدم أن تجلس على الكرسي المقابل فجلستْ مفرودة الظهر كالموناليزا.

- مدام زينب...

قاطعتني بحدة: مادموازيل من فضلك.

قلتُ ضجرًا: يا جناب معالي زينب هانم، الأستاذ يوسف كان فين وقت الحادثة؟

- كان معايا. طلعنا السلالم وعند الكوريدور سمعنا صريخ المرحومة بس الباب كان مقفول من جُوَّه وبعد كذا محاولة قدِرنا نكسره لكن لقينا الأوضة فاضية.

- وإيه اللي خلاكم تسيبوا الحفلة وتطلعوا الأوضة من الأساس؟

شددت قبضتها على يدها قائلة بهدوءٍ:

– ده سؤال يقدر يرد عليه مسيو يوسف و...

قاطعتُها بحدة: إحنا اللي نحدد مين يرد على إيه.

أضاف قطز برقته المعهودة مع السيدات:

– إحنا حابين نسمع الإجابة منك إنتِ.. إيه الشيء الضروري اللي كان لازم يشوفه في أوضة وداد؟

– أقولهم أنا، يا زوزو؟

قالتها فتاة في الثانية عشرة من عمرها واقفة عند طرف الباب ممسكةً بدمية كبيرة وطبق كريم كراميل لا أجد فرقًا بينها وبينه؛ فقد كانت سمينة ورخوة وبيضاء البشرة ولها عينان عسليتان وشعر بُني كالكريم كراميل.

قصيرة ومستديرة كالبرميل، دخلت بمنامتها الوردية حاملة دميتها ثم جلست على الأريكة بجوار زينب وأكملت أكل الكريم كراميل قائلة: أنا اللي ناديت زوزو وقُلت لها إني...

قالت زينب بنبرة آمرة: فريدة.. إيه اللي صحَّاكِ دلوقتي؟

– أنا مانمتش أصلًا. قاعدة بتفرج عليكم من فوق. التفتت إليَّ مضيفة: أنا أوضتي قُدَّام أوضة بابي، وكنت بتفرج على saw، عارفه؟

أجابها قطز: ده كله دم وتقطيع؟ مش بتخافي؟

– بابي بيقول لازم أبقى شجاعة وقلبي جامد.

كررت زينب بنبرة جادة: فريدة، يلا على النوم.

– بس، يا زوزو أنا...

– فرييييدة.

كادت المراهقة التي امتلأ وجهها بحب الشباب أن تنهض، ولكني استوقفتها قائلًا

– خليكِ، يا فريدة.. قوليلي حصل إيه؟

أبتسمت كاشفة عن أسنانها اللؤلؤية وجلست بكرشها الممتلئ وقالت متحمسة:

– وداد الشريرة خلت ألطاف تطلعني أنام و...

قاطعتها قطز: ليه بتقولي عليها شريرة؟

– عشان هي بتتريق عليَّ وبتقولي إنتِ شبه الكريم كراميل، تخينة ومكعبرة وضربتني قبل كده وكمان ضربت زوزو على وشها و...

قالت زينب بصوت كالفحيح: فرييييييدة.

عضت الفتاة شفتيها ثم بدأت تداعب خصلة من شعرها المجعد كالإسباجيتي بينما أضافت زينب:

– حضرة الظابط دي بنت عندها اتناشر سنة، ماينفعش تحقق معاها و...

أجبتها ببرودٍ: ده مش تحقيق.. كملي يا فريدة.

– طلِعْت أنام بس كنت جعانة وطلبت من ألطاف تجيبلي كريم كراميل من اللي في الحفلة، لكن وداد شافتها وفضلِت تزعق وتقول هاتي لي اللبن والفاكهة وسيبي البغلة دي، وبعد ما ألطاف جابت لها الحاجة ومشيت، أنا سمعت دوشة من أوضتها فبصيت من خرم الباب لقيت سعيد بيزعق

لها وماسك السكينة البينك وبيقولها هموتك هموتك، وهي قالت له أنا حوِّلت الفلوس في حسابك. خفضت صوتها وقالت هامسة: وحضنِتُه وباسته في خده وقالت له إنت مالكش غيري ماتسمعش كلام شكرية.

ارتبكَتْ زينب ولكنها لم تُوقِف فريدة ولم تمنعها عن الكلام بينما أسهبت المراهِقة في الحديث بأسلوب مسرحي تُغيِّر فيه طبقة صوتها وتمثل بيديها:

– لفيت لقيت زوزو واقفة ورايا وبتقولي عيب تتجسسي على حد لكن أنا قُلت لها سعيد جُوَّه مع...

قاطعها قطز: سعيد مين؟

أجابت زينب بهدوءٍ: الشوفير.

فأكملت فريدة مسرعة: قُلت لزوزو هروح أنادي على بابي بسرعة يشوف بنفسه بس هي قالت لي خليكِ في أوضتك أنا اللي هناديه، لكن وداد سمعت ولما بابي جَه مالاقاش حد.

ألتفتُّ لزينب قائلًا: هي دي الحاجة الضرورية؟

قالت ببطء: أيوه، أنا.. أنا حاولت ألَّمح لمسيو يوسف كتير بشأن... نظرتْ لفريدة التي بدأت تقطع خصلة من شعرها وتمضغها وهو تصرف لا يليق بفتاة في سنها فقالت: سيبي شعرك يا فريدة.

تركت شعرها سريعًا ثم بدأت تداعب دميتها التي تقبض على رقبتها بعنفٍ فقالت زينب زافرة:

– أنا مش هعرف أتكلم والبنت قاعدة.

صاحت فريدة معترضة: أنا مش صغيرة. أنا كبيرة وعارفة كل حاجة. وداد كانت بتخون بابي.. بابي أصلًا مش بيحبها، لو ماكانتش حامل كان هيرجع لمامي ويسيبها. التفتت إلينا وهي تهز قدمها بتوتر وتزيد من شدة قبضتها على دميتها: وداد كانت الناني بتاعتي وهي ضحكت عليَّ وخلتني أحبها بعد كدة اتجوزت بابي ومامي عيطت كتير بسببها. هي وحشة مع كل الناس. التفتت إلى زينب قائلة: قوليلهم، يا زوزو إنها ضربتك النهارده وكانت هتخليكِ تمشي زي ما مَشِّت حامد.. احكيلهم.

همس لي قطز قائلًا: أنا شايف إن البنت تمشي.

– أنا شايف إن سعيد لازم يحضر حالًا.

– أنا بعت له.. هطلع أشوفه بنفسي.

خرج قطز برفقة فريدة التي سحبت دميتها الكبيرة ورحلت.

قالت زينب متضايقة: حضرتك خلَّصت أسئلتك؟

– هو أنا لِسَّه بدأت؟ مين سعيد بقى؟

– وداد شغَّلته من كام شهر. اتبلِّت على حامد شوفيرنا القديم بإنه أتحرش بيها وعملت دوشة ومسيو يوسف حَب يريح نفسه فبعت حامد يشتغل عند أحد أصدقائه المهمين وخلى سعيد الـ...

– وإيه شكل العلاقة بين سعيد ووداد؟

صمتت زينب قليلًا ثم أضافت: الشكل اللي فريدة قالت عليه.

– وإيه الدليل على ده؟

– أنا وألطاف لمحناها كذا مرة بتتسحب لأوضته في وقت غير مناسب

أو هو يطلع لها في عدم وجود مسيو يوسف.

– والموضوع ده بقاله أدّ إيه؟

– حوالي شهرين.

– ويوسف كان حاسس بحاجة؟

– إطلاقًا. المسيو بيثق في الناس كلها، أطيب إنسان ممكن تتعامل معاه في الدنيا.

– شكلك بتعزيه أوي.

– أنا بقالي اتنين وتلاتين سنة بدير بيت عيلته.. هو بيعتبرني أخته الكبيرة.

– مدام إنتِ غالية عليه أوي كده، إزاي سمَح لوداد تضربك؟!

– ما يعرفش إنها ضربتني.

– ليه ماقُلتيلوش؟

– ماحبتش أزعجه الليلة دي. رأس السنة مناسبة مقدَّسة عند مسيو يوسف وممنوع طرح أي نوع من المشاكل حتى لو كانت نهاية العالم.

– بس مع ذلك ناديتِ عليه عشان يقفش وداد.

صمتت ولكني كنت أعلم الأجابة مسبقًا فقلتُ:

– عشان تردي لها القلم اللي أتدهولك، صح؟

رمقتني بكبرياء وتمنعت عن الرد فتأكدتُ من صحة تخميني وأضفتُ:

– هي ضربتِك ليه صحيح؟

أجابت على مضض: عشان اكتشفت كذبتها.. وداد مش حامل.

(3)

أشعلتُ سيجارة ثم سألتُ زينب: وعرفتِ منين إنها مش حامل؟

– شُفتها النهاردة بتاخد دوا خاص باللي شايلين الرحم.

– وانتِ عرفتي منين إنه خاص باللي شايلين الرحم؟

– عشان أختي الصغيرة استأصلت الرحم وبتاخد من الدوا ده فتأكدت إن حمل وداد كان كدبة حاولت تنقذ بيها نفسها عشان مسيو يوسف قرر يطلقها ويرجع لمدام نادين، بس لما عرف بحملها تراجع عن الفكرة. أنا قررت أواجهها لكن رد فعلها كان في غاية البجاحة.

– وما قُلتيش ليه ليوسف إنها مش حامل؟

زفرت في نفاد صبر: ما قُلت لحضرتك عشان ما أنكدش عليه الليلة دي، بس كنت حالفة أقوله بعد الحفلة. مش بس عشان وداد لازم تنكشف على حقيقتها، عشان مسيو يوسف ومدام نادين لازم يرجعوا لبعض وفريدة تتربى بينهم.. وداد هي اللي بوظت كل حاجة، بعد خمستاشر سنة حب ووئام بين المسيو والمدام، كان لازم تطلع من الصورة عشان السلام يرجع في البيت ده.

بدأ الشك ينتابني، فزينب لم تكن فقط تتكلم عن وداد بكل ما أوتيت من كرهٍ وغِلٍّ، بل إنها تكاد تكون أقصر من الضحية فإذا وقفتُ خلفها لن يراها أحد، كما أن ولاءها ليوسف وعائلته منقطع النظير وقد يدفعها حبها للعائلة التي كرست عمرها في خدمتها لهذا.

– يعني يوسف مايعرفش موضوع حملها لحد دلوقتي؟

– أنا قُلت له لأنه لما شاف وداد ميتة انهار على ابنه اللي كانت حامل فيه. فاضطريت أعرَّفه عشان أهديه وفهِّمته إنها ما تستاهلش دَمعة واحدة منه ووريته الدوا عشان يتأكد.

هذا يفسر ردود فعله الهادئة وعدم اهتمامه بمعرفة القاتل أو حتى حزنه على زوجته القتيلة.

– وصدَّقِك؟

– مش عارفة.. فضِل ساكت، مانطقش بكلمة. عمري ما شُفته في الحالة دي. بيتعامل كأن مافيش حاجة حصلت، لا غضِب ولا حزن.. حالة غريبة من عدم التصديق.

– موِّتُّوا أختشي، يا كفرة.

أتى الصوت مجلجًا غوغائيًا من الخارج؛ فاقتربت صاحبة النواح الغجري واقتحمت الصالون.

كانت امرأة في منتصف الأربعينيات قصيرة القامة، ناتئة العظام، لها أسنان بارزة من أسفل شفتيها الرفيعتين وشعر تختلط فيه ألوان الصبغة الرديئة بين الأحمر والبني والبرتقالي.

وقفت ورفعت يديها بأداء مسرحي فتشخشخت أساورها الذهبية بذراعها الرفيعة وهي تقول:

- قتلوا أختشي، يا باشا. قتلوا أختشي الحيلة. بدأت تبكي فساح كحلها ليزيد منظر وجهها النحيف قبحًا: يا عيني، يا وداد يا أختشي.. يا صغيرة على الموت يا أختشيييي.

مطت زينب شفتيها ممتعضة من أداء شكرية الهمجي ثم زفرت قائلة:

- حضرتك عايز منِّي حاجة تاني؟

- حاليًا، لأ. بس خليكِ قريبة.

هزت رأسها وخرجت لتتركني مع شكرية شقيقة القتيلة التي بدأت تمسح دموعها بكُمها قائلة:

- لما كلموني في المشتشفى ماصدقتش. زاد بكائها: أنا اللي مربية وداد يا باشا. أبويا وأمي سابوهالي وهي تلاتاشر سنة وأنا اللي اشتغلت وربيت وحلِفت لأخليها تتعلم وتاخد الدبلون وتبقى عروسة. احتد بكاؤها وهي تقول: تيجي تموت كده هُوَّك؟ بدأت تولول قائلة: سبتشيني لمين؟ ليَّ مين من بعدك، يا بنت أمي وأبويا.. مين اللي عمَلْها، يا باشا؟ مين اللي قتل أختشي؟

أشعلتُ سيجارة أخرى وسألتها متجاهلًا رثاءها المصطنَع:

- تفتكري إنتِ مين؟

- يعني أنا اللي هعرف، يا باشا؟

– ردي عدِل.. كنتِ فين الساعة اتناشر؟

– في المدعوقة المشتشفى عندي نبطشية.

– واتخانقتِ ليه مع أختك النهارده الصبح؟

مسحت دموعها كاشفة عن وجهها الحقيقي: عشان واطية بنت ستشين كلب.. طلَبْت منها مبلغ مايسواش ربع اللي صرَفْتُه عليها في تعليمها تقوم الناقصة تقولي وأنا مالي ياكش تتحرقي.. ده أنا لو كنت مربية كلب كان طمر فيه. أول ما دخلتْ البيلا نسيتْ أصلها ونكرتْ جمايلي عليها.. أنا اللي خلتها بني آدمة ووقفت حالي ومحتالي وفي النهاية تعمل كده هُوَّك؟ عادت للبكاء: بس أقول أيه، يا باشا.. أختشي وماتت وقطعت بيَّ...على كل اللي كان بينا ماكانش لينا غير بعضينا. كنا ناكل بعض زي الكلاب السعرانة وبرضك نرجع نتصالح.. دي مش أختشي الصغيرة، دي ضنايا. اشتد بكاؤها: ضنايا ماتت يا باشا.

خرجت الكلمات الأخيرة صادقة من قلبها وأخذت تمسح أنفها المدبب كالساحرة الشمطاء:

– مين اللي عملها يا باشا؟ شاورلي بس عليه وأنا أنهش مصارينه.

– كنتِ تعرفي العلاقة اللي بين سعيد ووداد يا شكرية؟

– هو حضرتك عرفت؟!

– ده البيت كله عرف.

– عرفوا إمتى وأزاي؟ ده لحد النهارده الصبح ماحدش كان عارف أيوتها حاجة.

– وإنتِ بقى اللي عارفة؟

– إلا عارفة. ده أنا اللي.. أستغفر الله العظيم. ماكنتش عايزة أحكي بس خلاص، ما هي ماتت وماعادش يفرق.. لما وداد رفضت تديني فلوس أنا جبت سعيد وحطيته قُدَّام عينيها كده هُوَّك وقُلت لها لو ما ادتنيش اللي عايزاه هخلي البيه يعرف كل حاجة.

– هددتِ أختك بإنك تقولي لجوزها عن خيانتها له مع سعيد؟

أرجعت رأسها للخلف قائلة بدهشة:

– أستغفر الله العظيم، يا رب. تخون جوزها مع سعيد إزاي، يا باشا.. استغفر ربك.

– إيه، يا ست الشيخة؟ ما إنتِ اللي لِسَّه قايلة كده.

– قايلة إيه يا باشا. دي وداد تخون البيه مع أي حد إلا سعيد.

أجبتها ساخرًا: ليه أخته في الرضاعة؟

– لا يا باشا.. أمه.

(4)

فركتُ عيني وقد بزغ الفجر ونفذ ضوؤه من النافذة بينما تكلمت شكرية بلا توقف:

– سعيد يبقى ابن وداد ومدحت. الواطي عمل عملته مع البت وهي خمستاشر سنة وقالها هسافر أطاليا وأرجع أعيِّشك برنسيسة. الفقري ابن الفقرية مات في البحر وقرقشه السمك.. بس وداد كانت حِبلة وجَت تعيط لي وأنا أختها الكبيرة وبرضك مسئولة عنها يا باشا. قالت لي هتنزِّل العيِّل قُلتلها حرام يا أختشي ده روح.. كان في بقى جارة عندنا اسمها جمالات إنما غلبانة غلب الدنيا.. متجوزة جدع شغال في الكويت وقالها إن أمه هتخليه يطلقها عشان لِسَّه ماجَبتلوش عيِّل، أصل جمالات مابتخلفش وكانت خايفة تقول لجوزها على الحكاية دي هيَّك. أنا بقى جَت لي الفكرة حيث إن أنا إيه.. لما أمخمخ أعجبك أوي. قُلت لها خدي ابن وداد وقولي لجوزك إنك حامل وهو كده كده بينزل مرة في السنة يعني مش هيشك في حاجة. قامت جمالات خدت وداد الفيوم.. هي أصلًا من هناك وعندها سجرتين برتقان.. عيِّشِت وداد معاها لحد ما وِلْدِت

وخدت العيل بس مافيش مخلوق يعرف إن سعيد المكتوب في الشهادة باسم جمالات وجوزها يبقى من لحم ودم وداد.

– أومال إيه اللي جابه هنا؟

– الواد حاله اتشقلب بعد ما أبوه مات وعمه كَل عليه ورثه.. وهو عيل خايب وعواطلي وبيتنشي على القِرش. أنا شُفت ظروفه وبرضك كنت مبقوقة من وداد الصراحة يعني، قُلت أخلي المصلحة واحدة.. كلمته وقُلت له وداد تبقى أمك الحقيقية وامشي معايا تطلع بحاجة حلوة وهو لما صدق.. كلب فلوس زي أمه. جِبته لوداد وقُلنا لها تدينا فلوس، نسكت وما نفتحش بُقنا.

– ابتزاز يعني؟

– فين الاستبزاز ده يا باشا؟ ده أنا سترت عليها ولميت لحمها وخلِّتها تساعد الواد اليتيم وتشغله عندها وياكل لقمة حلوة ويلبس هدمة نضيفة ويقعد في بيلا أهله ما يحلموش يشوفوها من بعيد و...

– وإنتِ تسحبي من وداد وماتقدرش تقولك بِم.

– ماتقدرش إيه؟ وداد دي جبارة، ده أنا لما طلبت منها فلوس آخر مرة قالت لي كفاية بقى وأعلى ما في خيلك اركبيه، إنتِ ما عندكيش دليل إن سعيد يبقى ابني، فقُلت لها بس عندي يا روح أمك دليل إنك مش حامل.. أصل كلام في سرك، هي جالها المرض إياه بتاع نزيف الرحم، قبل ما تيجي البيلا هنا وكان لازم تشيل الرحم بس طبعًا البيه مش عارف، هي مخبية عليه.

– وسعيد؟

– عيل قلبه أبيض، هو عصبي حبتشين آه، بس يطلع يطلع وينزل على مافيش. ورِث من وداد طبعها الحامي وخد مني قلبي الطيب.

رفعتُ حاجبيَّ، فأنا لا أفهم عن أي قلبٍ طيب تتحدث وكدتُ أسألها سؤالًا آخر، ولكن قاطعني دخول قطز المفاجئ ممسكًا بفتى في التاسعة عشر من عمره له أذنان وطواطيتان ووجهٌ كالفأر وبشرة لم تتعافَ من آثار حَب الشباب بعد.

شدَّد قطز قبضته عليه قائلًا: الباشا حاول يهرب.

ألقى به على الكرسي بينما قال الفتى معترضًا بنبرة همجية:

– ماكنتش بهرب، يا عم. إوعى كده طاااه.

– يا عم؟! طب اظبط ياض بدل ما أظبطك.

قالت شكرية بريبة: بتحاول تهرب ليه يا سعيد؟

– ماكنتش بهرب بقولك.

صاح قطز: أومال مين اللي كان بينط من فوق سور الفيلا.. ها؟

لم يكن غريبًا أن يحاول الهرب؛ فهو قصير القامة ونحيف وبسرواله ثقب.. مواصفاته تطابَق مع القاتل، كما أن فريدة رأته ممسكًا بالسكين ويهدد وداد بالقتل.

أطفأتُ سيجارتي قائلًا: بتدخن يا سعيد؟

أجاب بتردد: آه.

– أكيد كيلوباترا، ها؟ مش تقيلة على صدرك دي؟

ضحكَ متهكمًا وقال متفاخرًا: يا باشا أنا لا مؤاخذة صدري حديد.

نظرتُ لقطز فهز رأسه موافقًا، إذًا فعلبة السجائر والقداحة اللذان وجدناهما بغرفة وداد يخصانه.

– كنت بتعمل إيه في أوضة وداد الساعة إتناشر؟

حك رأسه قائلًا ببطء: والله، يا باشا يعني.. كنت بكلمها في موضوع كده.

– موضوع إيه اللي يخليك ترفع سكينة على أمك؟

اتسعت حدقتا قطز في اندهاشٍ، بينما استعجب الفتى قائلًا:

– هي شكرية اعترفت من أول قلم؟

شهقت شكرية قائلة:

– اعترفت على إيه يا واد؟ رفعت السكينة على وداد ليه؟ قتلت أمك يا سعيد؟ اندفعت من مقعدها وانقضَّت عليه كالضبع ممسكة بعنقه صائحة: قتلت أختشي يا ناقص.

دفعها بقوة صائحًا: إوعي كده. سكينة إيه يا باشا؟ إنت جبت الكلام ده منين؟

– الناس شافوك ماسك سكينة الفاكهة وبتهددها.

– يا باشا دي كانت لحظة غضب.. إنت فاهم غلط. أنا طلعت لها الأوضة وشديت معاها بكلمتين بس هي فهِّمتني الدنيا وأنا خرجت و...

- خرجت من الشباك ليه؟

صمت مرتبكًا فقلتُ له: قول اللي حصل بالتفصيل عشان كده القضية لابساك يا روش.

حكَّ رأسه ثم زفر قائلًا: يا بيه أنا خدت كاسين من اللي في الحفلة والخمرة ونِّت معايا. كنت طالب منها فلوس وهي قالت مش هتديني فطلعت لها الأوضة وهددتها بس اللي هو طلقتين في الهوا يا باشا، كلام في الكليتش يعني مش تهديد بجد وهي نفسها كانت عارفة كده وخدت مني السكينة وسابتها على السرير وسجِّدِتني، وقالت لي أنا بعت لك فلوس في الحساب اللي فتحتهولك عشان تسدد ديونك.. أصل أنا دخلت مشروع سايبر واتنصب عليَّ ومتداين لطوب الأرض وماضي على وصولات أمانة ومحتاج فلوس عشان ما أتحبسش مش أكتر من كده يعني.

- وبعدين؟

- البقرة الضاحكة بنت البيه دي شافتني من خُرم الباب ونادت على الحيزبونة اللي اسمها زينب فَوداد قالت لي أنط من شبَّاك الحمَّام قبل ما جوزها يشوفنا ويفهم غلط، يعني لما يلاقي راجل في أوضة نومه.. ما هو ماحدش يعرف إني ابنها غير شكرية.. نطيت بقى من الشباك ورجعت أوضتي اللي في الجراج وبعدها سمعت صويت.

قال قطز: والمفروض بقى نصدق الهتش ده؟ هددتها واتصالحتوا ومشيت؟

- ورب الكعبة ده اللي حصل.

- أُمَّال حاولت ليه تهرب من الفيلا؟

- عشان ألحق أسحب الفلوس من البنك، أصل لو حد لقى إنها حوِّلِتهم لي ممكن يشك فيَّ.

قال قطز: إنت كداب شاطر أوي.

- كداب ليه يا باشا؟

- في حد يشهد على إنك طلعت من أوضة وداد وهي لِسَّه عايشة؟

- يعني إيه؟

- يعني الكاسين لعبوا في دماغك وكلمة منك على كلمة منها طعنتها عند باب الحمَّام، جريتْ تستنجد من البلكونة، طعنتها تاني ورميتها وهربت إنت من شبَّاك الحمَّام وخفِيت السكينة و...

صاحت شكرية وانقضت عليه ثانية: قتلت أختشي يا وسخ؟

انتفض قائلًا: ورب الكعبة ما حصل.

أكمل قطز: طولك نَفْس طول القاتل. دخلت الأوضة وقفلت من جُوَّه وجزمتك سابت آثار طين ومسمار شبَّاك الحمَّام نتش بنطلونك وانت بتهرب.. شايل في قلبك غل وكره إنها بتنكرك قُدَّام الناس وكمان رافضة تديك فلوس وتعوضك فخلصت عليها.

- تعوضني عن إيه يا بيه؟ تعوضني على إنها جابتني من الحرام ورمتني لغيرها عشان تستر فضيحتها؟ يا بيه ده أنا ربنا أنقذني منها ومن عيشتها الوسخة.

– أُمَّال قتلتها ليه؟

– وربنا وربنا وربنا ما قتلتها. التفَتْ لشكرية صائحًا: قولي له.. قولي له إن إنتِ اللي جبتيني هنا ولعبتِ في دماغي بمفك عشان ناخد منها قرشين. صاح صوبنا: ما قتلتهاش، ده أنا بخاف من الدم.. طب ورب العباد ما قتلتها.

صاح قطز بحزم: فين السكينة يالا؟

– ورب الكعبة ما أعرف.. أنا ما عملتش حاجة، إيه الإفترا ده!

قال قطز مخرجًا أصفاده: هو إنت لِسَّه شوفت إفترا!

***

تعلقت الأصفاد في يدي سعيد الذي لم يتوقف عن البكاء والصياح والقسَم بأنه لم يرتكب الجريمة التي تُناسِب مقاسه بشكلٍ دقيقٍ.

فما من شاهدٍ على رحيله من غرفة وداد وهي على قيد الحياة، كما أنه اعترف بنفسه أنه كان مخمورًا غاضبًا ولم يدرك ما يفعله.

ربما المقت الذي يحمله بعقله الباطن دفعه لهذا.

يبدو الأمر في غاية البساطة، ولكن في الواقع عندما يكون الأمر سهلًا، أتأكد من أن هناك خطأً ما.

وُضِع سعيد بسيارة الشرطة ولم يتوقف عن الارتعاش والتشنج والصياح حتى وصلنا إلى القسم كي تؤخذ أقواله ويتم التحفظ عليه إلى أن يُعرض على النيابة.

***

جلستُ إلى المكتب لاهيًا بليمونتي الصفراء قائلًا لقطز:

- أنا مش مقتنع.

- بإيه؟

- سعيد مش هيستفيد من موت وداد. لسبب ما أنا مصدق أنه نط من الشباك قبل ما وداد تموت.

صمَتْ قطز وقد قطب حاجبيه قائلًا:

- الأدلة كلها ضده يا نوح.

- عشان كده إحنا متحفظين عليه لكن فين الدافع؟

- عشان يشفي غليله.

- لو على الغليل يبقى الأولى إن شكرية هي اللي تقتلها بعد ما قضت عمرها تربي أختها وسترت عليها لما غلطت. وداد بقت غنية وطرقعت لها.

- بس شكرية كان عندها نبطشية في المستشفى.

- وجبانة ومش من النوع اللي يقتل.. هي تهدد، تبتز، تسرق لكن قتل لأ.

- يبقى خلاص هو سعيد.

- مين المستفاد من موت وداد يا قطز؟ أو بمعنى تاني من المتضرر من وجودها؟

- نادين مرات يوسف بس...

– بس هي مش عارفة إن وداد حامل وفاهمة إن يوسف هيطلقها.

– وكمان كانت في أسوان وقت الحادثة.. يبقى يوسف نفسه؟ بس طويل وكان هيتشاف في البلكونة.

– ممكن ما يبقاش هو اللي رامها.. هو اللي طعنها وحد غيره كمل.

صمت قطز للحظات ثم أضاف:

– قصدك إن اللي قتلوا وداد، اتنين مش واحد؟

– ماكانش فيه غير اتنين اختفوا وقت الحادثة "يوسف وزينب" ومافيش شاهد على إنهم كانوا فين وبيعملوا إيه، غير هُمَّا الاتنين. يعني ممكن يبقوا طابخينها سوا.

حاولت تخيل مشهدًا معقولًا للجريمة.

– يوسف وزينب دخلوا الأوضة ويوسف قفل بالترباس ولمح سعيد قبل ما يهرب فدمّه فار وسحب سكينة الفاكهة في لحظة غضب وطعنها الطعنة الأولى فتنح والسكينة وقعت منه من الصدمة لكن وداد جريت على البلكونة وصرخت. زينب خافت إن حد يسمعها ويوسف يتسجن، فخدت السكينة وطعنتها الطعنة التانية وزقتها عشان تخلص منها وتحمي يوسف.. زينب أقصر من وداد.

حك قطز ذقنه مفكرًا حتى نطق أخيرًا:

– احتمال معقول والدافع موجود عند الاتنين، بس فريدة قالت إنها شافت باباها بيكسر باب أوضة وداد لأن أوضتها قُدَّام أوضتهم بالظبط..

لو هو اللي قتل وداد كان عادي دخل وخرج من غير ما حد يشوفه، إيه الهدف من إنه يتربس الباب من جُوَّه وبعدها ينط من الشباك؟ وهنقول يا سيدي إنه غيَّر البنطلون عشان مايبانش قطع المسمار بس ليه يرجع الأوضة تاني ويكسر الباب؟ لو كان فعلًا مصدوم ماكانش هيلحق يفكر ويخطط.. وبعدين زينب هتنط من الشباك إزاي بسنّها ده؟ لفة طويلة أوي يا نوح.

أمسكتُ رأسي محاولًا مقاومة ذاك الصداع الذي يفتك بي قائلًا:

– أنا بفكر معاك بصوت عالي، بس أنا متأكد إنه مش سعيد اللي عملها.

– يا سيدي، هيتعرض على النيابة وهم يحددوا، ولَّا أقولك؟ لما الساعة تيجي اتناشر، شبح وداد هيظهر؛ إبقى روح اسألها.

زفرت وقد ازداد ألم رأسي: شكلي هعمل كده.. معاك حاجة مسكَّرة؟ حاسس إني مهبط.

– إستنى نبعت حد يجيب لنا تودو براونيز و...

– تودو براونيز إيه هو أنا قاعد مع ابن أختي!

مددتُ يدي بجيبي متذكرًا وجود حبتين من السكاكر التي اشتريتها لتالا وخبأتهما كالعفريتة بدميتها الكبيرة و...

دميتها الكبيرة؟!

أنتفضتُ من على الكرسي ساحبًا مفاتيحي قائلًا:

- قوم، يا قطز بسرعة.

- بسم الله الرحمن الرحيم، في إيه؟

- أنا غزاي ماخدتش بالي من اللقطة دي.. عارف مين اللي قتل وداد؟

- مين؟

- فريدة.

(5)

إذا رأيت فريدة، ستظنها ملاكًا لا يقوى على إيذاء بعوضة؛ ولكن ليس كل ما تراه حقيقيًا.

كنتُ أرى أنه من المريب أن تكون فتاة بالثانية عشرة في عصر الواي فاي، تتنقل حاملة دمية كبيرة محشوة بالقطن في يدها، ولكنها ذكَّرتني بتالا التي كانت تحمل دبها القطني معها لأنها تخفي به سرَّها – الحلوى المخبأة – ولا تود أن تتركه حتى لا تتفحصه أمها وتكتشف أمرها وهكذا فعلت فريدة.

لِمَ عزمنا أن القاتل هربَ من النافذة؟

أليس من الممكن أن يكون قد اختبأ أسفل السرير أو بالخزانة منتظرًا حتى يُفتَح الباب ثم يخرج مَن بالغرفة – يوسف وزينب – هرعًا إلى الحديقة لتفقد جثة القتيلة وسط الحضور بينما يتسلل القاتل من الخزانة أو من أسفل السرير وصولًا إلى مكان آخر قريب؟

وأي مكان أقرب من الحجرة التي حدثت بها الجريمة غير غرفة فريدة؟

هكذا أتصور الأمر:

وصلت باقة من الورود بها كارت من نادين طليقة يوسف. وداد رأت الكارت وشعرت بالغيرة فتشاجرت مع زوجها. سعيد لمحها تترك الحفل متجهة إلى غرفتها.

ألطاف قدمت الكريم كراميل لفريدة – المنشغلة بمتابعة فيلم رعب دموي – ثم رأتها وداد فصاحت بالخادمة وطلبت منها كوب الحليب وطبق الفاكهة وفي دقائق كانت ألطاف نفَّذت الأمر.

انشغلت وداد بتقشير التفاحة الحمراء في اللحظة التي رأت فيها سعيد السكران يدخل غرفتها بحذائه المتسخ بالطين صائحًا فخافتْ أن يراه أحدهم فأغلقت الباب من الداخل بكامل رغبتها.

أمسك سعيد كوب الحليب وألقى به عرض الحائط مترنحًا ثم سحب سكين الفاكهة وهددها بالقتل في لحظة تهور. سمعت فريدة الضجيج من حجرتها التي تبعد عن غرفة وداد ببضع خطوات.

نظرت من ثقب الباب لتراقب ما يحدث بينما أخذت وداد السكين من سعيد ووضعته على السرير.

أتت زينب من خلف فريدة وتحدثتا، ولكن وداد سمعتهما فجعلت سعيد يهرب من نافذة الحمَّام.

نزلت زينب السلالم وأمرت فريدة أن تعود لغرفتها، ولكن من شدة فضولها لم ترحل.

بعد أن هرب سعيد من النافذة، أخذت وداد نفَسًا عميقًا وفتحت الباب متظاهرة بأنه لم يحدث شيء.

رأت فريدة واقفة أمامها فصاحت بها، علها استفزتها أو شتمتها أو حتى ضربتها وربما سمعت صوتًا قادمًا من الحَّمام أو بشكل فطري اتجهت صوب الباب لتتأكد من أن سعيد قد رحل.

محمَّلة بالكراهية ومشحونة بكمٍّ كبيرٍ من المشاهد الدموية العنيفة بالفيلم الذي كانت تشاهده، لمحت فريدة السكين على السرير وقد ألهمها مشهد تهديد سعيد لوداد بالقتل.

أوصدت فريدة باب الغرفة وأغلقت القفل الداخلي ثم سحبت السكين وأقتربت من وداد الواقفة عند باب الحمام وفي اللحظة التي استدارت فيها وداد قامت فريدة بطعنها في بطنها بعنفٍ.

اندفعت وداد ضئيلة الحجم صوب الشرفة صارخة طالبة العون فطعنتها فريدة القصيرة ثانية من ظهرها وعندما شعرت أن وداد مازالت حية، انحنت البدينة ذات الجسد المتين ورفعت قدمي الضحية ضعيفة البنية عن الأرض لتُسقِطها من الشرفة.

استدارت فريدة لترحل ولكنها سمعت صوتَ أبيها وزينب يقتربان فاختبأت سريعًا تحت السرير أو بداخل الخزانة وظلت هناك حتى كسر أبوها الباب ودخل وتفقد الغرفة ثم رحل الاثنان.

خرجت فريدة من مخبأها وهرعت إلي غرفتها. غسلت سكينها ويديها من الدماء وغيرت ملابسها ثم ألتفتت حولها ولم تجد سوى دميتها

المنفوخة الراقدة على السرير.

فتحت سحَّاب الدمية كما تفعل تالا وأخرجت القطن. دفست السكين. أعادت الحشو. أغلقت السحَّاب وظلت متعلقة بدميتها حتى لا ينكشف أمرها.

***

انزعج قطز من الفكرة وقال ونحن في طريقنا إلى الفيلا:

- لا لا لا.. مستحيل.

- ليه؟

- ليه؟! إنت بتحاول تقنعني إن بنوتة كيوت تـ...

- أولًا كلمة كيوت دي بتعصّبني.. ثانيًا الجريمة جَت بشكل عفوي بدون سابق تخطيط وده يزود احتمالية إن هي اللي عملتها. العنف اللي بيتشاف في التليفزيون كل يوم سواء أفلام ولَّا مسلسلات ولَّا حتى الأخبار اللي بتعرض الجثث كأنهم جبنة شيدر عليها عرض في كارفور.. كل ده بيأثر على نفسية العيال ومش بس كده. هي حاسة بالخيانة من ناحية وداد اللي وثَقِت فيها وحبِّتها وبعدها لقيتها بتفرَّق بين أبوها وأمها وكمان بتسيء معاملتها وبتتريق عليها وبتلطشها في الرايحة والجاية وماحدِّش بيمنعها ويوم ما البنت اتعشمت إن أبوها وأمها هيرجعوا لبعض، وداد طلعت حامل وفرقت بين أهل فريدة للمرة التانية.

- بس، يا نوح..

– الضغط بيولِّد الانفجار والناس بيتعاملوا مع عيالهم على إنهم أطفال مش فاهمين حاجة ولا عارفين اللي بيحصل حواليهم وإنهم لما يكبروا هينسوا، بس عمرهم ما بينسوا. كل إهانة وكل ضربة وكل قسوة بيشوفوها بتتخزن جواهم، فطبيعي تبقى دي نهاية وداد.

– طب على الأقل لو كانت هي اللي عملتها كانت تنهار، مش تبقى متماسكة ولا أجدعها سفاح.

– ممكن تبقى في حالة صدمة أو شايفة إن اللي عمَلِته حلال في وداد فما تتأثرش بدليل إصرارها على إن وداد تموت. طعنتها مرة واتنين ورميتها من البلكونة.

بدأ قطز يقتنع ولكنه رفض الاعتراف بذلك فقال:

– عمومًا، نظريتك دي هتبقى صح لو لقينا السكينة في الدبدوب زي ما بتقول.

– تراهن على كام؟

***

كانت الساعة السابعة صباحًا عندما دخلنا فيلا يوسف وكان مضطربًا عندما قابلنا قائلًا:

– خير يا حضرة الظابط؟

عجز قطز عن الرد فقلتُ: حضرتك عارف إننا مالاقيناش سلاح الجريمة اللي هو سِكِّينة الفاكهة وسعيد ما اعترفش على مكانها فكُنّا شاكين إن حد خباه عند بنتك.

اضطرب قائلًا: عند فريدة؟ بس البوليس فتش الفيلا حتة حتة وقلبوا أوضتها ومالاقوش حاجة.

– بس في مكان ماحدش فكر فيه، الدبدوب الكبير اللي بنتك ماسكاه.. هي متعودة تشيله كده؟

– لأ. أنا حتى استغربت بس قُلت يمكن عشان خايفة ولا حاجة.

– ممكن أشوفه؟

– أوي، أوي. بس هو مين ممكن يخبي السكينة في الدبدوب؟

كاد قطز أن يشرح له ولكني أوقفته قائلًا:

– كل حاجة هتبان، بس تسمح لي أشوف الدبدوب.

– طبعًا. لحظة أجيبه لحضرتك و...

– لأ. أنا هطلع معاك أشوفه بنفسي.

اضطرب ولكنه بلع ريقه قائلًا:

– اللي تشوفه.

***

وقفنا عند عتبة باب غرفة فريدة ذات اللون البرتقالي التي ينتشر على حوائطها ملصقات أفلام الرعب ذات الوحوش البشعة والوجوه الدامية والمشاهد المرعبة وقد كانت الفتاة البدينة نائمة في سريرها الكبير، تحتضن دميتها بشكلٍ عنيفٍ وفور أن دخل والدها فتحت عينيها وقالت منتفضة

– بابي؟

حبيبتي. خليكي نايمة...أنا هاخد الـ teddy bear بتاعك وهطلع

نهضتْ فزعة وأحكمتْ قبضتها على الدمية قائلة:

- ليه يا بابي؟

- الظابط عايز يشوفه.

- لأ. ده بتاعي أنا، ماحدش يشوفه.

تعجب الأب من اعتراض ابنته بينما كانت مقاومتها - من وجهة نظري - تأكيدًا على نظريتي.

- حبيبتي، هنشوفه ونرجَّعه تاني.

صاحت في أبيها بعنف: لأ، ماحدش هيشوف حاجتي.

جذب الأب الدمية ضجرًا ولكنها شدتها منه وظلا يتجاذبان أطراف الدب المحشو حتى انخلعت قدمه فصاح يوسف في ابنته:

- إيه يا فريدة الدلع ده؟

ومن الساق المخلوعة التي تدلى منها القطن، سقط السكين الوردي محدثًا صوتًا معدنيًا على السراميك الأبيض ولمع عاكسًا ضوء الصباح المنبعث من نافذة الغرفة.

شهقتْ فريدة واضعة يدها على فمها بينما تعجب الأب وكاد ينحني لالتقاط السكين ولكني أسرعتُ قائلًا: إوعى تلمسه، ده سلاح الجريمة.

شعر قطز بخيبة الأمل في اللحظة التي شعرتُ فيها بمشاعر لا أفهمها.

نصر ماسخ وظفر مُر.

انفجرت فريدة باكية قبل أن ينطق أيٌّ من ثلاثتنا وهي تقول:

– هي السبب...هي اللي عملت نفسها بتحبني وضحكت عليَّ عشان تتجوزك وبعدها بقت بتضربني وتشتمني وتتريق عليَّ.

تجمدت أطراف يوسف وتيبست ملامحه وهو يتمتم بصوتٍ مهزوز:

– هي مين يا فريدة؟

أكملت بكاءها ووجهها يكاد ينفجر من شدة حمرته

– وداد.. وداد الشيطانة. هي اللي خلتني أقتلها.

أسقط يوسف الدمية من يده وفتح فمه وشعرتُ أنه عجز عن التنفس بينما أكملت فريدة:

– هي اللي خلتك إنت ومامي تسيبوا بعض وخلت عمو حامد يمشي وهي اللي ضربت زوزو وسممت الهاميستر بتاعي عشان بتخاف منه.. هي اللي شالت صور مامي من كل حتة وبقت بتطلع معاك في التليفزيون بدلها وتقعد على السُفرة مكانها وتنام في سريرها وتاكل في أطباقها.. إنت ومامي كنتوا هترجعوا لبعض بس هي حامل عشان كده هتفضل طول عمرك معاها وهي هتفضل طول عمرها بتعذبني، ماكنتش عايزة أخ منها.. أنا كنت عايزة أعيش معاك تاني إنت ومامي، كنت عايزاكم ترجعوا لبعض.. وداد تستاهل اللي جرى لها. وداد تستاهل تموت، يا بابي.

***

الجريمة لا سن لها.

أصبحنا في عصر يسهل فيه سلب الناس أرواحهم ولا يجب أن تطعن أحدهم أو تلقيه من النافذة كي تصبح قاتلًا، فالقتل المعنوي هو سم بطيء المفعول ودائم الأثر.

كلمة واحدة قادرة على قتل أحدهم فهكذا يُصنَع المجرمون، أيًا كانت طبقتهم الاجتماعية أو المادية فالنفس البشرية واحدة.

كلنا كائنات تظنُّ نفسها الأقوى بالرغم من أنها الأضعف، فلنا قلوب سهلة الجرح ونفسية هشة قابلة للكسر وعقلٌ من السهل التلاعب به وذاكرة تخلد كل ألم وجرح.

لم يعد من الإنساني أن نؤذي صغارنا ونؤلمهم سبًّا وضربًا وسخرية وإهانة ظانين أنهم سيكبرون وسينسون لأننا في الواقع، لا ننسى ولا نغفل عمن أذونا أبدًا.

***

أخرج قطز من جيبه العلبة البلاستيكية الصغيرة التي يضع فيها بذور القرنفل النفاذة، أخذ بذرة داكنة اللون وبدأ يمضغها لسببٍ أجهله ولم أكن في مزاجٍ لأسأله عن هذا.

لم يتوقف عن المضغ بينما تصفح الإنترنت قائلًا بنبرة مصدومة:

– يا نهار إسود! تعرف إن فيه أكتر من 10 آلاف طفل محكوم عليهم أو محبوسين احتياطي في مصر...ونسبة الجريمة المتورط فيها الأطفال زادت 25٪ من بعد الثورة ونسبة المحكوم عليهم بسبب جرائم بشعة تؤدي

للحبس أكتر من عشر سنين، حوالي ٪23 من إجمالي الأطفال المسجونين اللي ٪20 منهم ارتكبوا جرائم قتل عمد و٪50 منهم سرقة ومخدرات؟!

لم أعلق وبقيتُ أحملق بالسقف في حالة من الشعور بالذنب.

للمرة الأولى، أشعر بالندم بعد كشفي لهوية القاتل الحقيقي.

حاولتُ أن أذكِّر نفسي بأنني أنقذتُ سعيد المسكين البالغ من العمر تسعة عشر عامًا من حبل المشنقة، وأنه يعتبر أيضًا طفلًا بالنسبة لي، ولكني لن أنسى هذه القضية ما دمتُ ولن يُمحَى مشهد القبض على فريدة وهي تبكي من ذاكرتني، ولا شكل تعبيرات أبيها المنتكس الرأس.

ذاك الرجل اكتشف في ليلة واحدة أن زوجته كاذبة وليست بحامل، فخسر ابنًا كان يظنها تحمله بأحشائها وابنة أصبحت قاتلة بسبب نزوة حمقاء وزواج متهور أقحم نفسه به ولا أعلم كيف سيكمل حياته حاملًا على كاهله ذاك الذنب الذي اقترفه بحق ابنته الصغيرة.

اقترب قطز من الشاشة وأكمل كلامه بنبرة أكثر غضبًا:

– إلحق، يا عم. تعرف إن في 2016 بس، اتسجلت 15 ألف جريمة ارتكبها عيال تحت سن الـ18 منها 4730 قضية سرقة و4 قتل و22 قضية سلاح ناري و75 قضية سلاح أبيض و333 قضية مخدرات و40 قضية هتك عرض و8 قضايا دعارة هز رأسه ثم كرر مصدومًا: دعارة؟!

– طب سمعت إنت عن قضية العيل اللي من سوهاج؟ قتل صاحبه عشان اتخانقوا على زينة رمضان، وفي القناطر طفلين اتخانقوا على سعر

سماعات توكتوك وواحد فيهم قتل التاني.. على الأقل فريدة كان عندها دافع منطقي.

زفر قطز وأغلق اللاب توب بعنف ثم قال بجدية:

- إبقى فكرني لما أخلف، لا خلي عيالي يتفرجوا على أفلام رعب ولا أجيب لهم دباديب كبيرة.

ضحكتُ مضيفًا: ولا تخون أمهم مع دادة بتعمل كريم كراميل.

القضية الثالثة

(ست الحسن)

(1)

لو رأى قائدو السيارات العالقون بزحام كوبري قصر النيل ما أراه الآن بعيني، لوَلّوا فرارًا وقفزوا بالنهر هلعًا.

على الكوبري العتيق، بين أبواق السيارات وصياح سائقيها الغاضبين، انتشرت أشباحٌ لأطفالٍ تتراوح أعمارهم بين الثامنة والسابعة عشر، يركضون بطريقة بهلوانية على السور الحديدي للكوبري ويرقصون بشكل همجي فوق تماثيل الأسُود الشامخة ثم يثبون إلى النيل أو يقفزون على أسقف السيارات ويطيرون فوق رؤوس المارة وبائعي الورود والمناديل.

خمس عشرة ضحية من أطفال الشوارع، ماتوا نتيجة حالة تسمم غريبة أصابتهم بمنطقة قصر النيل، وقد اتجه الصغار إلى المشفى ولكن لم يتم استقبالهم لعدم توافر المال أو عدم وجود مكانٍ لهم؛ فمِنْهُم من مات على سلم المشفى، ومنهم من خرجَتْ روحُه على الكوبري وها هم الآن، خمسة عشر طيفًا في حالةٍ من الهرج والمرج كأنهم بملاهي السندباد، وكل هؤلاء البشر الذين يتذمرون من الاختناق المروري بساعة الذروة، يغفلون عمن يطفون ويعبثون حولهم.

من بين الأرواح التي غزت الكوبري، لفتَ انتباهي شبح رجل بالستينيات من عمره يقف متكئًا على السور بعيدًا عن الأطفال العابثين وهو يراقب الزحام في صمت.

يرتدي كنزة من صوف غالٍ ونظارة نظر ذهبية وله شعر فضي ناعمٌ وملامح دقيقة وتوحي هيئته بأنه فيلسوفٌ أو فنانٌ يتأمل النيل تارةً ويبتسم لأشباح الأطفال اللاهين تارة أخرى، وقد بدا وجهه مألوفًا لدي، ولكني لا أتذكر أين رأيته من قبل.

ارتاب شبح الرجل الأنيق لتحديقي المطوَّل به فأبعدتُ نظري سريعًا قبل أن يدرك أنني أراه، ثم أكملتُ قيادتي متجهًا إلى القسم متسائلًا إن كان ذاك الأنيق قد ماتَ مسمومًا كباقي الأطفال.

***

قبل أن أتجه إلى مقعدي، أخبرني قطز برغبة اللواء رشوان في رؤية كلينا فتوجهنا إلى مكتبه بعد أن قام قطز بتلميع حذائه وهذَّب شعره ورشَّ من عطره وكأنه على وشك مقابلة خطيبته.

طرقنا الباب ثم دخلنا المكتب الواسع ذا الأرضية اللامعة والخشب الأنيق وقد رحَّب بنا اللواء رشوان صاحب الوجه المستدير والأعين الضيقة والأنف المعقوف ثم قال بصوته الخشن:

– أكيد سمعتوا عن حادثة ولاد الشوارع اللي اتسمموا من كام يوم.

أجبتُه: أكيد سيادتك.

– خدتوا بالكم من تلميحات العيال بتوع النت واتهامهم للداخلية

بإننا اللي سمِّمناهم عشان نخلص منهم زي ما حكومة البرازيل ضربت أولاد الشارع بالنار.

قال قطز: يا افندم، لما القضية تتحل ونكشف الفاعل الحقيقي هنخرِس ألسنتهم.

– عدَّى أسبوعين وما تمش التوصل لأي شيء..

أخذ نفسًا عميقًا وأكمل: أنا منبهر بالشغل اللي إنتوا الاتنين عملتوه في الفترة اللي فاتت، خصوصًا قضية طه عبد اللطيف، عشان كده قررت إنكم تسيبوا أي قضية في إيديكم دلوقتي وتنضموا لزمايلكم اللي شغالين في الموضوع ده.. أنا ممكن أديها لحد قديم بس كلهم بيفكروا في نطاق محدود وبيحطوا افتراضات تقليدية والموضوع دلوقتي اتحول لقضية رأي عام، والوزير نفسه متابع لأن أصابع الاتهام بدأت تتوجه لينا. أنا واثق إن التسمم الجماعي ده مش صدفة زي ما أنا واثق بالظبط إن إنتوا الاتنين هتقدروا توصلوا لإجابة منطقية للي حصل ده.

علقتُ قائلًا: وإحنا أدّ ثقتك يا سيادة اللوا.

أضاف قطز: إن شاء الله هنلاقي اللي عملها.

ابتسم اللواء رشوان وأضاف بحميمية:

– طريقة شغلكم بتفكرني بأهلكم. يحيى وأنور كانوا لما يحطوا قضية في دماغهم بيجيبوا آخرها.

قال قطز متوسلًا: طب والنبي يا سيادة اللوا تبقى تقول الكلمتين دول قُدَّام بابا عشان يبطل يقولي يا خايب في الرايحة والجاية.

ضحك اللواء فاهتز كرشه الكبير قائلًا:

– ده الفرق اللي بيني وبين أنور، هو مش شايف أمل في جيلكم بينما أنا مؤمن بإنكم قادرين على صنع المعجزات.. عايزكم ترفعوا راسي، الترقيات قربت.

نهض قطز قائلًا بثقة: صدقني، يا سيادة اللوا.. هتندهش.

***

جلس كلانا إلى المكتب وسط الأوراق ونتائج المعامل بعد أن أطلعنا زملاءنا عمَّا توصلوا إليه في القضية وفي الواقع، لم يتوصلوا إلى أي شيء.

قلتُ لقطز: إيه مادة الأتروبين دي بقى؟

– المادة اللي اتسمموا بيها.

نظر إلى التقرير: جرعة زائدة من مادة الأتروبين.

– مخدرات يعني ولا إيه؟

– مكتوب هنا.. –انتشل ورقة وبدأ يقرأها–: مادة تُستخدَم كقطرة لتوسيع حدقة العين أثناء العمليات الجراحية والتهاب العنبية وبطء القلب والقولون العصبي والقرحة وترياق للتسمم من فطر عش الغراب والمبيدات الفوسفورية العضوية و...

– إنجز يا قطز.. ده سم ولا دوا؟

– اللي فهمته إنه مادة بتُستخدَم في صناعة الأدوية بس جُرعة معينة منه تخليه يتحول لسم.

– يبقى نشوف مين اشترى أي دوا فيه المادة و...

– الشباب عملوا كده، لقوا إن كل اللي اشتروه في الفترة اللي فاتت كانوا من مرضى القلب وجابوه بروشتة وبالجرعة المحددة. الطب الشرعي قال إن المادة اللي مات بيها الأطفال هي المادة الخام للسم مش المستخدمة في الأدوية.

– وإيه مصدر المادة الخام للسم؟

– مش عارف.

– نبقى نعدي على طارق وهو يفهمنا. يعشق السموم زي عينيه.

– قشطة أكمل قراءة التقرير.

ثم أضاف: بيقولك إن السم دخل الجسم عن طريق الأمعاء، يعني اتحطت في أكل أو شرب.

– حلو، إيه بقى الشيء اللي أكَل منه خمستاشر عيل في نفس التوقيت؟

زفر قطز قائلًا: حسبي الله ونعم الوكيل في اللي خلى العيال يموتوا على سلالم المستشفيات كده. تعرف إني فرحان إن الموضوع سخنان والعيون على القضية كده؟ حق العيال دول لازم يجي.

– هيجي، بس إيه الدافع ورا تسميم خمستاشر عيل؟

– تلاقيه توربيني جديد.

– التوربيني كان بيغتصب أطفال الشوارع وبعدها يقتلهم لكن المرة دي ماحدش من العيال دول اتعرض للاغتصاب أو السرقة أو الضرب، اتقتلوا وبس.

– يمكن شغل عصابات، معظم أولاد الشوارع متورطين في تهريب مخدارات أو إتجار.

– ما أظنش إن عصابة مخدرات هتقتل بالسم، معظمهم بيستخدموا طرق عنيفة وهمجية.. السم طريقة منتقم ذكي بس خايف يواجه، مش عصابات قلبها ميت.

كعادته، دخل صلاح بملابسه ذات الألوان الفاقعة المؤذية للنظر بلا استئذان.

في الغالب لا يمر على مكتبنا إلا لثلاثة أسباب: كي يتباهى بأمرٍ ما، كي يطلب منا طلبًا سخيفًا، أو لأن رائحة الطعام الذي نتناوله قد جذبت حاسة شمه التي تفوق حاسة الكلاب. وبرؤية هذه العلبة الحمراء الملفوفة بطريقة رخيصة التي يحملها بيده، أظنه أتى ليتفاخر بأمرٍ ما.

– إيه يا نكدي منك له؟ بتعملوا إيه؟

لم ألتفت إليه وانشغلت بقراءة الملفات بينما نظر قطز للعلبة بفضول قائلًا:

– دي هدية الفالنتاين؟!

تظاهر صلاح التافه بأنه يرى العلبة لأول مرة ثم قال بتباهٍ لا داع له:

– إيه ده؟ إنت خدت بالك؟ داعب شعره الذي تفوح منه رائحة الجيل المقيتة: دي البت سماح، جايبالي برفان عشان عيد الحب، إنت عارف تفاهة النسوان.

– تفاهة؟! كتر خيرها إنها عبرتك.

– دي أقل حاجة، يا ابني. ده أنا مغرَّقها كروت شحن. بس والله أحسن من البت سوسن اللي جايبالي دبدوب محمياه في جردل ترتر –ضحك كاشفًا عن أسنانه الصفراء– النسوان لسعت، يا جدع. أنا يتجابلي دبدوب أحمر؟ فاكراني خريج تجارة إنجليش؟! ضحك ضحكته الأقرب لنباح الكلب ثم أكمل: لما نشوف نجوى هتجيب لي إيه، على الله تكون حاجة لها لازمة. التفت إلي قائلًا: سيادة النقيب لمونة ساكت ليه؟

أجبته بفتور دون أن أرفع عيني عن الأوراق:

– مشغول.

– مشغول في إيه يا ابني إنت؟

– هو أنا مش قُلت تبطل كلمة يا ابني دي؟!

– هو أنا بسبّ لك؟ التفت لقطز قائلًا: ما تقول لصاحبك ينزل من على البرج اللي بيكلمنا منه ويتعامل معانا عدِل، إحنا مش شغالين عند الست الوالدة.

قلتُ بهدوء: بقولك يا صلاح. خد هديتك وشنبك وجيل لولوا اللي في شعرك ده واتكل على الله.

– آآآآآه. أنا برضو قُلت كده. محروق إنت عشان جالي تلات هدايا وانت سنجل معفن ماحدش معبرك ضحك ساخرًا: يا شباب، صفوا نيتكم عشان ربنا يكرمكم.

قلتُ ببرود: يكرمنا بإننا نبقى زيك؟ عندك 34 سنة ومطلق تلات مرات ومخلف أربع عيال كل واحد فيهم من واحدة شكل؟!

ضحك الضحكة نفسها وقال: طب يمين تلاتة بتغيروا مني. معلش، بكرة يجيلكم عدَلْكُم. ضحك ثانية: صحيح وصلتوا لإيه في القضية بتاعت العيال اللي اتسممت؟ أنا كنت هشتغل فيها بس اللوا رشوان شاف إنها قضية تافهة وصغيرة عليَّ أوي.

أدرتُ عينيَّ في محجريهما وزفرتُ ضجرًا فهكذا هو صلاح، يُتفِّه ويحقِّر من شأن أي شيء يخفق فيه ويقلل مِن قدر مَن ينجح فيه حتى يهوِّن فشله على نفسه.

لم أعره اهتمامًا بينما أكمل منفعلًا:

- شوية عيال كلوا من الزبالة ولا اشتروا أكل بايظ وماتوا، إيه بقى الهُليلة الكبيرة اللي اتعملت دي والجرايد العالمية تتكلم عن حقوق الإنسان وإهمال المستشفيات و...

قاطعه قطز متضايقًا: ما هو لو كان عيِّل من عيالك اللي اتسمم ماكنتش قُلت كده.

احتدت نبرة صلاح قائلًا: إنت هتجيب عيالي بعيال الشارع؟ أنا موفر لهم أحسن عيشة وهطلعهم بني آدمين مش بلطجية وكولاجية يرازوا في الخلق. التفت إليَّ مضيفًا: إيه يا سي نوح. نسيت جارك اللي عيِّل من دول ثبته وغزه؟ ولا المتظاهرين اللي عيال الشوارع قتلوهم ولبسوها فينا، ولا البنات اللي بيغتصبوهم.. إيه يا جدعان! العيال دي موتها راحة، بلاش خوتة دماغ.

- إنت ماعندكش ذَرة إنسانية، اللي بتتكلم عليهم دول أطفال

عندهم سبع وتمن سنين وكل القرف اللي هُمَّا عايشين فيه ده بسببنا، مش عارفين نوفر لهم حياة كريمة ولا مأوى يلمهم.. يعني إيه عيل يتسمم ومايلاقيش دكتور ينقذه؟ يعني إيه يسيبوه يموت على السلم زي الكلب عشان مالوش أهل؟

– والله ماحدش خلاه يهرب من بيتهم ويعيش في الشارع ولا أجبر أمه على إنها تجيبه من الحرام وتبلينا به، بناقص الأشكال الوسخة دي.

طويت الملف الذي أقرأه وقد طفح بي الكيل، فأجبتُ صلاح بنبرة صارمة:

– أمثالك يا صلاح اللي مِدِّيين نفسهم الحق في تحديد مين يستاهل يعيش ومين يستاهل يموت، هُمَّا اللي جايبِنَّا ورا...روح شوف البت نجوى جيبالك هدية إيه وسِبنا نشوف شغلنا.

– وهو شغلكم حماية ولاد الشوارع والبلطجية و...

– شغلنا حماية الأرواح والأعراض والأموال ومنع الجرائم وضبطها وكفالة الطمأنينة والأمن للمواطنين في كافة المجالات.. مش دي المادة التالتة من القانون 109 اللي إنت فالقنا بيه ومش حافظ منه غير اللي على مزاجك واللي لصالحك وبس؟!

ضحك متهكمًا وقال: قلب خساية، يا أخويا منك له. خرج متمتمًا: جَتكم خيبة.

رحل عن مكتبنا بعدما سحبَ كل الأوكسجين من الغرفة فقال قطز:

– أنا مش مصدقه بجد.

- عادي، صلاح طول عمره حيوان وأفكاره أ...

- مش قصدي على أفكاره.. أنا مش مصدق إن صلاح المعفن تجيله تلات هدايا في الفالنتيان وأنا قاعد زي قرد قَطَع.. ده ظلم.

زفرتُ قائلًا: طب قوم، قوم نروح لطارق، يا خيبتها.

***

في طريقنا إلى صيدلية طارق بجاردن سيتي، رأيتُ السيدة "فتون" ذات القامة الطويلة والجسد النحيف والبشرة السمراء والشعر الأسود الجارسون والملامح المتطابقة مع نفرتيتي.

تقف بمحل الورود الذي افتتحه أبوها بالخمسينيات ليصبح أول محل يستخدم منظر الشلال الصناعي والمياه الجارية على الزجاج الخارجي.

لهذه السيدة مَعزَّة خاصة بقلبي؛ فقد اعتادت أن تعطي جدتي ما لا يقل عن ثلاثة أو أربعة بطرمانات من مربى التوت التي تصنعها بالمنزل والتي أعشقها بشكلٍ يفوق الوصف وأكاد أجزم أنني سأصاب يومًا ما بمرض السُكري من كثرة تناول مربى جارتنا فتون.

لم أكن الوحيد الذي يعشق هذه السيدة ذات الصوت الوديع واللمسات الحنونة؛ فالجميع يحبها.

ليس فقط لأنها صاحبة أرقى ذوق في اختيار الهدايا وتزيين باقات الورود، بل لأن السيدة فتون البالغة من العمر خمسة وخمسين عامًا امرأة ملائكية، خُلِقَت لتنشر البهجة بيننا؛ فبكل مناسبة تنزل الشوارع وتوزع الورود على الناس، فبعيد شرطة تتجه إلى قسم قصر النيل وتوزع الورود

البيضاء على الضباط والعساكر والأمناء، وبالصيف توزع المياه الباردة على عساكر المرور لترحمهم من حرارة أغسطس وبِعيد الفطر تفرِّق علب الكحك بالملبن على البوابين والباعة الجائلين، وبِعيد الحب تضع تخفيضات خرافية لا مثيل لها على باقات الزهور وتقف أمام محلها بعربية بلاستيكية مزينة بشكلٍ مبهج، وكلما مرَّ أمامها حبيبان أعطتهما وردة بابتسامة تأسرك.

لمحتنا عندما نزلنا من السيارة ولم يكن حب قطز لها أقل مني، ففور أن رآها أقبل عليها وقبَّل وجنيتها، بينما عانقَتْهُ فشخللت أساورها الفضية ذات الرموز الفرعونية وهي تقول:

– الظبابيط الحلوين عاملين إيه؟

أجبتها: مافيش حد في الكوكب بيقول ظبابيط دي غيرك.

– عشان أنا مافيش مني اتنين يا ولد.

– لا منك ولا من مربتك.. وبالمناسبة هي الـ...

– المربى بتاعتك هتوصل لك قريب، المرة دي أنا عملاها بطريقة جديدة.. مش هتشتري ورد؟

أجابها قطز: لمين، يا حسرة؟

– للبنوتة اللي بتحبها.

أجبتها: بنوتة مين، يا طنط؟ صباحك مربى.

– الكلام مش ليك، يا أبو قلب ناشف.. قولي إنت يا قطز، مافيش حاجة كده ولا كده؟

قال ساخرًا: يووووووه، ده فيه وفيه وفيه.. ماما الله يبارك لها عايزة تجوزني استشهاد.

تعجبت قائلة: استشهاد؟! مش دي بنت خالتك رتيبة؟

– آه. طب بذمتك أنا أتجوز واحدة اسمها استشهاد؟

أجبته ساخرًا: ده على أساس إن اسمك لؤي؟!

قالت السيدة فتون: بغضّ النظر عن اسمها، إيه اللي مش عاجبك فيها؟

– مش بحبها يا طنط. ده أنا ماباطِقش خالتي نفسها أقوم متجوز بنتها وأخليها حماتي؟!

– إوعى تتجوز غصب عنك يا قطز. مش كفاية خلُّوك ظابط بالعافية؟

– والنبي قوليلها عشان أنا خلاص قربت أبلبلع حبوب وأنتحر.

– بمناسبة الحبوب، هنروح لطارق في الصيدلية ونرجع لك تاني يا طنط.

– ماشي يا حبايبي. في رعاية الله.

***

دخلنا الصيدلية التي تدلت على بابها ستائر من القلوب البلاستيكية المزعجة، ووضع على الزجاج ملصقات لملائكة مُحلِّقة بمناسبة عيد الحب الرتيب؛ فقد انتشرت الزينة الحمراء كالجدري الذي أصاب مقاهي ومحال القاهرة.

وجدنا طارق جالسًا أمام أرفف الأدوية الزجاجية، يحملق بشاشة التلفاز متابعًا برنامج وثائقي بقناة ناشونال جيوغرافيك بكل حواسه حتى إنه لم يلاحظ دخولنا، فصِحتُ مباغتًا:

- طارق!

أغفل المسكين وأخذ يتلفت حوله كمن رأى عفريتًا:

- حرام عليك يا نوح.

- ده ممكن حد يدخل يقلِّبك ويطلع وانت ولا حاسس.

نظر قطز صوب شاشة التلفاز المعلقة على العمود الجداري وسأل طارق باهتمام:

- بتتفرج على إيه؟

- مسلسل العبقري.

- مش ده بتاع قصة حياة آينشتاين.

- آه، إنت متابعه؟

- طبعًا، شُفت الحلقة لما اتحدى البروفيسور فيليب لينارد في المحاضرة؟

- آه ولما اتخانق مع ميلفا مارتش و...

قاطعتُ حماسهما العلمي -فعندما يجتمع قطز وطارق، لن تجد نهاية لحديثهما الثقافي-:

- والنبي اقفلوا صفحة ويكيبيديا اللي فتحتوها دي واطفي لنا التليفزيون ده عشان عايزينك في موضوع مهم.

اضطرب طارق قائلًا:

- في إيه؟ نادية اشتكت لك من حاجة؟

– وهي نادية محتاجة تشتكي لحد؟ هي بتعرف تخلص على طول.

أطفأ التلفاز قائلًا: على رأيك. أُمَّال في إيه؟

قال قطز: عايزين نسألك عن مادة اسمها الأتروبين.

– آه. دي موجودة في بعض أدوية القلب وقطرة لتوسيع حدقة العين في العمليات و...

– عارفين الكلام ده بس عايزين نفهم هي سم ولا مخدر؟

– نسبة الأتروبين الموجودة في الأدوية اللي في الصيدليات مش مخدرة ولا بتسبب الإدمان لكن المادة الخام للأتروبين بتسبِّب هلاوس، في العصور الوسطي كانوا بيستخدموها كمخدر.

– والمادة الخام دي بتتجاب منين؟

– من مشتقات قلويدات الأتروبا الموجودة في نبتة البلادونا أو بالعربي شجرة ست الحسن والمضاد السُمي للأتروبين هو البيلوكاربين وأعراض التسمم بتبدأ بعد حوالي ساعتين تلاتة من هضم السم وكل ما كانت الجرعة أكبر كل ما ظهور الأعراض كان أسرع إلا لو كان السم اتحط في وجبة دسمة، التأثير بيبقى أقل.

– يعني السم ده بيتباع فين؟

– الحصول على السم ده صعب جدًا، بيتجاب من المعامل أو من الشجرة نفسها.

– الشجرة دي بتتزرع في مصر؟

– ما أقدرش أفيدك في الحتة دي لكن خليني أأكِّد لك إنه صعب تلاقي سم الأتروبين.

***

جلسنا بمقهى البستان بعد أن اشترينا الساندويتشات من فلفلة وطلبنا المشروبات الساخنة.

ارتشفتُ القهوة بينما ظلَّ قُطُز يحدق بمصباح الإضاءة الباريسي التصميم بصمت فظننته يراجع معلوماته التاريخية عن ماضي مقهى البستان أو تاريخ إنارة العمود أو أيٍّ من تفاصيل قطز الثقافية الغريبة ولكنه قال:

– البلادونا دي سمعت عنها قبل كده، مش فاكر فين، بس واثق إن حد مات مهم بسمها.

– لحد ما تفتكر، عايزين نعرف السم اتحط في إيه؟

– بقولك يا نوح، الدنيا هادية وضلمة، ما تيجي؟

نظرتُ له بارتياب: نيجي إيه بالظبط؟

– نكلم أرواح العيال.

– آآآآه، أنا كنت ناوي أعمل كده. زفرتُ قائلًا: ربنا يستر.

– ليه في إيه؟

– في إيه؟ أصلك ما شُفتش العيال دول بيعملوا إيه على الكوبري.

***

يزداد نشاط الأرواح ليلًا وهكذا أمسى لعب الأطفال ومرحهم هسيتريًا.

كان الكوبري خاليًا من المارة والحركة عدا صريخ وصياح أشباح الأطفال الذين يتنادون بصوتٍ عالٍ ويركضون على السور كالبهلوانات ويجرون خلف بعضهم ويلعبون الغميضة.

ودَّ قطز أن يأتي معي، ولكني لا أشعر بالرحة عند التحدث مع الأرواح أمام الأحياء فأصررتُ على الذهاب بمفردي وصففتُ سيارتي على حيد الكوبري ونزلتُ منها ممسكًا بالليمونة.

وقفتُ مترددًا؛ فأنا لم أتحدث يومًا مع هذا العدد الكبير من الأرواح في الوقت نفسه ولم أرَ أطيافًا بهذا النشاط من قبل.

كانت أصوات ضحكهم ومرحهم عالية، لا أظن أنهم كانوا بهذه السعادة عندما كانوا أحياءً.

داروا حول أنفسهم في دوائر وهم يلعبون فشققتُ الليمونة نصفين وإذ بالأطفال كلهم يلتفتون إليَّ ويحدقون بي بطريقة مريبة فقلتُ مترددًا:

- سلام عليكم، أنا نوح الـ...

قبل أن أكمل جملتي، ركضوا صوبي مهللين وهجموا عليَّ كمحاربي الطروادة.

امتدت أيديهم الشبحية لانتشال الليمونة من بين أصابعي قائلين:

- لمون، لمون، لمون.

صحتُ بهم محاولًا أن أخفي الخوف والرجفة التي أصابتني:

- بالراحة، بالرااااااحة.

تراجعتُ ولكنهم ظلوا يطوفون حولي بحماس طفولي مزعج وحيوية مفرطة حتى التصق ظهري بالسور ولم يعد هناك مفر فتحوَّل خوفي إلى غضبٍ

- ابعدوا.. انصرفوا يا ولاد الكلب.

لم أعد أحتمل الطاقة الكهرومغناطيسية المتولدة من خمسة عشر شبحًا يعانون من نشاطٍ مبالغٍ فيه؛ فألقيتُ بالليمونة جهة النيل فحلَّقوا في الهواء وطاروا خلفها ونزلت أرواحهم بالنهر.

شعرتُ بالوهن مع تصارع نبضات قلبي فابتعدتُ عن السور لاهثًا، وقبل أن أصل إلى سيارتي، ظهر أمامي شبح الرجل ذو الشعر الفضي والكنزة الصوفية قائلًا:

- إنت شايفنا، صح؟

حاولتُ أن أنظم أنفاسي وألا أعلَق مع شبح جديد ولكنه أضاف بابتسامة هادئة:

- هتعمل نفسك مش شايفني زي كل يوم؟

أخذتُ نفسًا عميقًا ثم قلتُ بهدوء: سلام عليكم، أنا نوح الألفي.

مدَّ يده ليصافحني قائلًا: وعليكم السلام، أنا ياسين الجارحي.

- بلاش لمس والنبي.

لم يفهم ياسين ما أقوله ولكنه أنزل يده ونظر للأطفال الذين بدأوا يخرجون من النهر ليكملوا لعبهم قائلًا: تعرف إنهم فاكرين نفسهم أبطال خارقين مش أرواح ميتين.

– إنت اتكلمت معاهم؟

– دول هم اللي مسلييني. صحيح، إنت شايفنا إزاي؟ وسيط روحاني زي الأفلام الأمريكاني؟

– يعني.. حاجة زي كده.

– واكتشفت الحكاية دي إمتى؟

لم أكن في مزاج رائق لأقص عليه حكايتي مع جبل الموتى؛ فغيرتُ دفة الحوار قائلًا:

– إنت مُت أزاي؟

– كنت قاعد في عربيتي ومُتّ فجأة بدون أي مقدمات.

– بالبساطة دي؟

ابتسم قائلًا: هو الموت لازم يبقي معقد؟

– لأ، بس عشان أنا متعود إن الناس بتموت مقتولة ومسمومة ومدبوحة، فَإن حد يموت موتة طبيعية ده اختراع بالنسبة لي. تأملتُ ملامحه لثوانٍ ثم علقتُ مضيفًا: أنا شُفتك فين قبل كده؟

– إنت بتّنَّح لي كل يوم وانت معدي على الكوبري.

– مش قصدي وانت ميت، شُفتك وانت حي.

– لو بتروح الأوبرا أكيد شُفتني، أنا مايسترو و...

– أيوه صح.. ياسين الجارحي. أنا جدتي حضرت لك حفلة قبل كده وخلّتني أصورها معاك.

– فعلًا؟

– جدتي بتحب الأوبرا جدًا.

– ده شيء عظيم. قولي يا...

– نوح.

– اسمك حلو أوي، مين اللي اختارهولك؟

– جدتي. كانت بتقرا سورة نوح لما جالها خبر إن ماما بتولد فقررت تسميني نوح.

– طب قولي يا نوح. إنت عايز إيه من الأطفال دول؟

– أنا من اللي بيحققوا في قضية قتلهم.

– أخيرًا حد قرر يجيب لهم حقهم، طب وصلتوا لإيه؟

– ماتوا بمادة سامة، كان في حد قاصد يقتلهم مش صدفة ولا أكل بايظ.

– وكنت عايز تكلمهم في إيه؟

– كلوا أو شربوا إيه. أي معلومة تفيدنا بس هُمَّا هايبر بزيادة.

ثبت نظارته الذهبية على أنفه ثم قال:

– لعلمك دول أطفال لطاف جدًا، لكن محتاجين حد صبور.

- أصل أنا ماليش خُلق مع العيال.
- أنا ممكن أكلمهم لك. شوف عايز تعرف إيه وأنا أسألهم.
- لو عملت كده يبقي كتر خيرك و...
- أنا بس محتاج منك خدمة صغيرة.

(2)

كنت واثقًا من أنه لا يوجد أحد يُقدِّم مساعدة مجانية بهذا الزمن.

- خدمة إيه؟

- روح لبنتي الكبيرة قولّها بابي بيقولك ما تتجوزيش كريم.

حككتُ ذقني قائلًا: بابي مين؟

- بابي أنا، روح لبنتي و...

قاطعته ساخرًا ومتخيلًا مشهد لقائي بابنته:

- أروح لبنتك أقولها أنا شُفت بابي الميت على كوبري قصر النيل لابس بلوفر صوف وبيقولك ما تتجوزيش كريم. آه، نسيت أعرفك بنفسي أنا نوح الألفي اللي بيشوف الأرواح.

- أكيد مش هتقولها كده، شوف لك طريقة.. أنا اكتشفت إني أقدر أروح لها بمجرد ما أفكر فيها بس هي لا بتشوفني ولا بتسمعني.

- اطلع لها في الحلم وكلمها.

- أطلع لها في الحلم إزاي؟

– اقف عند طرف سريرها وهي نايمة وأبدأ أتكلم معاها، الروح بتنفصل عن الجسد في وقت النوم وبتقدر تشوف أرواح الميتين.

– إنت متأكد من الكلام كدة؟

– جرب وانت تعرف. أغمض عينيه ليرحل ولكني استوقفته: إستنى رايح فين؟

– هروح لبنتي أقولها ما تتجوزش كريم.

– أكيد بنتك مش هتتجوز وأبوها لِسَّه ميت، فممكن نستنى ونشوف موضوع العيال ده الأول؟

– إنت مش فاهم، أنا اللي ضغطت عليها عشان تستمر في الخطوبة. في الأول كانوا بيحبوا بعض وبعد ما اتخطبوا وميعاد كتب الكتاب قرب قالت لي أنا عايزة أسيبه يا بابي عشان حاسة إنه بيخوني بس أنا افتكرتها بتدلع أو إن دي غيرة بنات مالهاش لازمة، ده غير إن والد كريم يبقي صديق عمري وما أقدرش أبقى في موقف محرج معاه لكن لما مُتّ وبدأت أراقب تصرفاته اكتشفت أن عندها حق وإنه فعلًا حقير وبيخونها وأنا مش...

– مش عايز بنتك تكمل حياتها مع واحد خاين بسببك، مفهوم مفهوم. ساعدني بس في القضية دي وإن شاء الله كله هيبقى تمام.

– طيب.. عَدّي عليَّ بكرة في نفس التوقيت.

***

في تمام الواحدة بعد منتصف الليل، وقفتُ بالمكان نفسه على كوبري قصر النيل واضعًا سماعة البلوتوث في أذني حتى لا يظن أحدهم أنني مجذوبٌ يحدث نفسه.

ظهر شبح المايسترو ياسين الجارحي بجواري قائلًا بوجه مشرق:

– لقيت لك الإجابة، تعالى معايا.

مشينا حتى تمثال الأسدين بمدخل الكوبري ووقفنا أمام واحدٍ يمتطيه فتى سمين في التاسعة من عمره يهتز فوق الأسد الشامخ فيتحرك جسده الرخوي بشكل متموج وهو يقول:

– شيييي، شيييي.

كان يظن الأسد حمارًا يمتطيه بالحقل فقلتُ لياسين يائسًا:

– هو ده الإجابة؟

– ده ولد في غاية الذكاء.

– ذكاء إيه؟ ده فاكر أسد قصر النيل حمار.

– ما تتسرعش في حكمك. أشار للطفل مناديًا: يا بطيييييخة. انزل، يا حبيبي.

أجابه الفتى بصوتٍ يلهث من بين دهونه وشحومه:

– أنا بطل خارق وراكب أسد.

– طب انزل دلوقتي ونبقى نركب الأسد بعدين يا بطيخة.

– اسمي سوبر بطيخة.

– طب انزل يا سوبر بطيخة عشان تساعدنا. مش السوبر هيروز بيساعدوا الناس؟

زفر الفتى ونزل بسترته الممزقة وحذائه المثقوب وسرواله المتسخ وقفز شبحه من فوق التمثال ليقف أمامنا لاهثًا فقال له ياسين بحنانٍ:

– بطيخة يا حبيبي، احكي لأنكل إنت شُفت إيه.

حكَّ رأسه قائلًا: ها؟

– أنكل إيه يا أستاذ ياسين. اقتربتُ من الطفل قائلًا: إنت شُفت إيه يا بابا.

– هات بورجار وأنا أقولك.

– إيه؟

– طب هات بوزو.

– يا حبيبي إنت مـ...

– هات بيبس طاااه.

– اللهم طوِّلك، يا روح.

زفر وأشار لي أن أقترب قائلًا: تعالا أقولك في ودنك.

اقتربتُ فبدأ يهمس في أذني بعد أن ظل يتنفس بها لفترة طويلة حتى قال:

– معاك ملبس؟

صحتُ به: يا ابني.. يا ابني، ماتخنقنيش بقى.

قال ياسين: بطيخة يا حبيبي، هنديك اللي إنت عايزه بس قولُّه اللي حكيتهولي.

أشار إليَّ أن أقترب ثانية فقلتُ معترضًا: إنت بتوشوشني ليه ما تحكي وتخلصني.

بكى صائحًا: إنت بتزعق لي.. طب والله ما هحكيلك حاجة.

كاد يرحل ولكنني استوقفته قائلًا:

- خلاص، يا حبيبي أنا راجل قليل الأدب. اتفضل احكي.

مسح دموعه قائلًا: هات ودنك.

أطعته مضطرًا فبدأ يتكلم ببطءٍ ويتنفس بصعوبة بين الكلمة والأخرى.

- في راجل سايق عربية سودة كبيرة وزَّع علينا عصير بتنجاني.

- بتنجاني؟

- لونه بتنجاني وطعمه مسكر.. كلنا شربنا منه وبطننا وجعتنا.. رُحنا المستشفى بس من كتر الوجع نمنا وصحينا لقينا نفسنا أقويا وبنطير في السما وبنعوم في النيل وماحدش يقدر يشوفنا.

- شكله إيه الراجل ده؟

- طويل ورفيع وأسمر ولابس جلابية بيضا وطاقية حمرة ونضارة شمس واكلة نُص وشه.

- لو شُفت الراجل ده تعرفه؟

- أنا سوبر بطيخة وعارف الناس كلها.. هات شوكولاطة.

- هجيبلك بس كمل، تعرف اسم الراجل ده؟

- لأ، أول مرة أشوفه.

- طب سمعته بيقول حاجة أو...

- ده راجل أخرس بيتكلم بالإشارة.

- طب كان فيه حاجة مكتوبة على علبة العصير اللي وزعها عليكم؟

- ماكانتش علبة. إزازة كبيرة بيكب منها في كوبايات بلاستيك.

- طب والعربية اللي كان بيسوقها؟

قال ياسين: بطيخة حافظ رقمها و..

قاطعه الفتى صائحًا: أنا سوبر بطيخة.

قال ياسين ضاحكًا: أنا آسف يا سوبر بطيخة.

رفع رأسه بشموخ ثم أشار لي حتى يكمل حديثه بأذني:

- أنا بحفظ أرقام كل العربيات من بصة واحدة بس.

- تصدق ياض إنت فعلًا سوبرهيرو، إيه رقم العربية؟

- مانا مش بعرف أقرا ولا أكتب.

ضربتُ وجنتي قائلًا: ألطم؟! ألطم على وشي؟!

- أنا ممكن أرسمهالك، أنا برسم حلو أوي، أرسملك كلب؟

- كلب إيه يا بابا إنت مش هتعرف تمسك ورقة وقلم.

- ليه؟ هو أنا اتشليت؟

- لأ عشان إنت ميـ... توقفتُ عن الكلام وتراجعتُ عن إخباره بكونه ميتًا فقلتُ: عشان إنت بطل خارق والأبطال الخارقين مش بيستخدموا الورقة والقلم.

زفرتُ ووضعتُ يدي في خصري مفكرًا حتى أخرجتُ دفتري الصغير وقلمي من جيبي قائلًا:

- إنت حافظ شكل اللوحة كويس؟ يعني لو شُفتها تعرفها؟

- أيوه، أنا سوبر بطيخة.

فتحت الدفتر وبدأتُ أكتب الحروف الأبجدية بالترتيب قائلًا

- ماشي يا سي سوبر بطيخة.

أنهيتُ كتابة الأحرف العربية ومن بعدها الأرقام من صفر إلى تسعة وأريتهم إليه موضحًا

- دي كل الأرقام والحروف. قولي شُفت إيه منهم على لوحة العربية؟

نظر للدفتر ثم التفت إليَّ وقال ممتعضًا:

- خطك نقش فراخ.

ضربتُ نفسي بالدفتر ثم قلتُ لياسين:

- مالقتش غير العيل السَمِج ده أكلمه؟

- ما ده الوحيد اللي خد باله من لوحة العربية.

قال بطيخة: اشتري لي حلبسة.

– هشتري لك كل عربيات الحلبسة اللي في الكوكب بس ارحم أمي وانجز.

دقق النظر في الدفتر ثم اختار الأحرف: قاف وباء وراء ومن الأرقام خمسة.

– وباقي الأرقام؟

– هو الرقم ده مكتوب تلات مرات جنب بعض.

– متأكد من ترتيب الحروف والأرقام ده؟

نظر لي بثقة منقطعة النظير

– أنا سوبر بطيخة.

***

أخبرني حازم – صديقي بالمرور – أن هذه السيارة تابعة لشركة تأجير سيارات بالتجمع الخامس فذهبتُ أنا وقطز إلى عنوانهم بعد أن قصصتُ عليه ما حدث مع أشباح الأطفال فتأثر وتلألأت عيناه بالدموع لفكرة أنهم يظنون أنفسهم قد تحولوا إلى أبطال خارقين بسبب مشروب سحري ولا يدركون أنهم صاروا موتى بسبب عصير مُسمَّم، مما أشعرني أنني إنسان معدوم الإحساس والعاطفة حيث أنني لم أتأثر بالقدر نفسه. ربما لأنني أرى أشباحهم فلا أشعر بهم كموتى أو ضحايا، كما أنني رأيتهم يلهون ويلعبون وهم أسعد مما كانوا عليه أحياءً.

وصلنا المكتب الأنيق الذي يملكه شاب يرتدي حذاءً لامعًا ويضع عطرًا ثقيلًا وقد رحب بنا بابتسامة بلاستيكية قائلًا: أخدم حضراتكم بإيه؟

– عايزين نعرف مين اللي أجَّر من عندكم عربية سودة عالية رقمها ق. ب. ر؟

– مين اللي أجَّرها إمتى بالظبط؟

– يوم الأربع واحد فبراير ما بين الساعة اتناشر لاتنين الضهر.

– لحظة.

خرج من مكتبه النظيف ثم عاد بورقة بها نسخة من بطاقة قائلًا: دي بطاقة اللي أجَّر العربية.

كانت تحمل اسم "خيري مدحت أمجد شلهوب"، جرَّاح مقيم بفيلا في التجمع الخامس.

قال قطز في طريقنا لفيلا صاحب البطاقة:

– بانت كده، يا معلم. جراح ومش صعب عليه يجيب السم.

– إيه اللي يخلي جرَّاح محترم يسمم أولاد الشوارع؟

– هنجيبه من قفاه ونخليه يعترف، ده المفروض يبقى عِبرة لمن يعتبر ثم حكَّ ذقنه قائلًا: بس برضو هموت وأعرف أنا سمعت عن شجرة البلادونا دي فين قبل كده؟

***

وصلنا الفيلا المترفة ولم نجد لها حارسًا.

فتحنا البوابة الحديدية التي لم تكن موصدة ومررنا من الحديقة المهملة ذات مقاعد الخوص المتربة وأقتربنا من الباب الخشبي الأنيق وقبل أن أطرقه شعرتُ برجفة لا تنتابني إلا عندما يلمسني شبحٌ.

استدرتُ لأجد روحَ رجلٍ في مقتبل الستينيات، قصير وأصلع. له جسد هزيل وعينان ذابلتان ويرتدي نظارة نظر مستديرة ويضع روب النوم الصوفي فوق منامته المخططة طوليًا.

نظر إليَّ متعجبًا وقد زادت دهشتي عندما أدركتُ أنه الجراح "خيري شلهوب".

أخرجتُ نسخة البطاقة ثانية ونظرتُ بالصورة ثم لشبحه، إنه هو بلا شك.

بدأ قطز يقرع الباب بينما قال لي الشبح بنبرة تائهة:

- ماشُفتش فاطمة؟

- دكتور خيري؟

التفت قطز حوله قائلًا: شكله مش جُوَّه و...

أشرتُ إليه أن يصمت وقلتُ لشبح الطبيب:

- سلام عليكم، يا دكتور. أنا نوح الألفي.

ارتبك قطز ونظر إلى حيث أوجِّه حديثي ففهم ما يدور وسألني هامسًا:

- نوح، الدكتور.. هو هنا؟

هززتُ رأسي إيجابًا بينما أعاد شبح الطبيب سؤاله:

- ماشُفتش فاطمة؟

- فاطمة مين، يا دكتور؟

- مراتي، قالت لي إنها هنا.. شُفتها؟

- هي ماتت؟

هز رأسه ثم أضاف: بس أنا رُحت لها أهو.

- رُحت لها إزاي؟ مين اللي قتلك؟

نظر حوله قائلًا: ما شُفتش فاطمة؟

- هساعدك تلاقيها بس قولي إنت مُتّ إزاي؟

عبس وغضب قائلًا: مش عايز...مش عايز منك حاجة، أنا هدوَّر عليها بنفسي.

- إستنى يا دكتور أنا...

أتى صوت ناعس من جهة اليمين قائلًا:

- أيوه يا أساتذة، في حاجة؟

ألتففنا لنجد البواب يفرك عينيه خارجًا من غرفته الصغيرة بينما اختفى شبح الطبيب.

قال قطز: دي فيلا الدكتور خيري شلهوب؟

- الله يرحمه.

- هو مات إمتى؟

- آخر يناير، قبَّضني وأتكل عـالله.

سألته: هو مات إزاي؟

- أنا ماعرِفتش الأساتذة يبقوا مين؟

- الأساتذة يبقوا مباحث، إخلص. خيري مات إزاي؟

– لا مؤاخذة، يا باشا. الأستاذ انتحر، ما استحملش الحزن على الست فاطمة ومات.

– فاطمة دي مراته؟

– أيوه يا باشا. ماكانتش بتخلف وهو كان بيدوب فيها دوب وفضلوا عايشين مالهمش غير بعض لحد ما ماتت في حادثة عربية والدكتور ما استحملش بعديها بشهرين وانتحر.

– انتحر إزاي؟

– حط لنفسه سم في العصير ومات.

***

الأمر برمته غير منطقي.

جمعنا ملفات التحقيق في وفاة خيري، وعدنا إلى المكتب في محاولة لتحليل الأمر، فقال قطز:

– يعني خيري جاب سم الأتروبين وحَطُّه في العصير وأجَّر عربية وطلع على كوبري قصر النيل وزع العصير المسموم على العيال ورجع بيته وانتحر بنفس السم؟

– إنت شكلك مش مركز وعايز تنام.

– ليه؟

– شهادة وفاة خيري مكتوب فيها 30 يناير والعيال ماتوا واحد فبراير.

– يعني إيه؟ مات وعفريته سمم العيال؟

– يعني مات وحد سرق بطاقته أجَّر بيها العربية وسمم العيال.

أوصاف خيري مش متطابقة مع اللي بطيخة قالي عليه، اللي سمم العيال راجل طويل وأسمر ورفيع وأخرس.

– يبقى الراجل ده هو اللي قتل الأطفال وخلى خيري ينتحر.

– خيري اتقتل ما انتحرش.

رفع حاجبيه قائلًا: إزاي بقى؟ التقرير بيقول...

– تقرير المباحث بيقول إن الباب كان مقفول بس المفتاح مش موجود وإنهم لقوا كوباية العصير اللي فيها السم على التربيزة لكن ولا لقوا أزازة السم ولا مصدر العصير نفسه.

– ترجم لي.

– الراجل اللي وزع العصير المسموم على العيال هو نفس اللي دخل بيت خيري وصب له من نفس العصير المسموم وسرق بطاقته وخرج وقفل الباب وخد المفتاح معاه عشان خيري مايقاومش ومايلحقش يروح المستشفى لما تظهر عليه أعراض التسمم، نفس الاستراتيجية اللي اتبعها مع أطفال الشوارع، كان عارف إن مافيش مستشفى هتستقبلهم وتديهم المضاد السُمي.

– بس خيري ماقاومش لأن نِفسه يموت ويشوف مراته، ولعدم وجود أعراض مقاومة أو لأنه ما استنجدش بالبواب افتكروا إنه انتحر.

– عشان بهايم وبيكروتوا التحقيق.

– طب إيه الرابط بين خيري وأولاد الشوارع؟

– الرابط هو الشخص اللي قتل الاتنين بنفس الطريقة، لو شبح خيري ماكانش مخرف كده بسبب موت مراته كنت فهمت منه.

- تفتكر البواب اللي قتله؟

- لو البواب كان حط له سم فران، وبعدين ده أبيضاني وتخين مش مواصفات القاتل خالص.

زفر قطز قائلًا: هو إحنا ليه ديمًا بنقع في قضايا حلزونية كده؟

نهض وفتح اللاب توب فسألته: بتعمل إيه؟

- هحاول أشوف اسم شجرة البلادونا ده أنا شُفته فين قبل كده، يمكن تطلع حاجة مفيدة.

***

في الظهيرة، علقتُ بالزحام المروري على كوبري قصر النيل وما زالت الأشباح الصغيرة تلهو حولنا، ومازال بطيخة يمتطي ظهر الأسد صائحًا:

- أنااااا سووووبر بطيييييخة.

في الآونة الأخيرة، ظهرت إشاعة أن الكوبري مسكون بسبب ظهور وجوه ضبابية غريبة بالصور التي يلتقطها المشاة ليلًا، والسبب الذي لا يعلمه مستخدمو الإنترنت، هو قدرة الكاميرات على التقاط هالات الأشباح.

بالطبع لا يظهرون بشكل واضح وصريح، ولكنك تراهم بعينك البشرية العادية على هيئة ضباب أو دخان أو نور مخيف، وقد أعجبت أطياف الأطفال بهذه اللعبة، فكلما وقف أحد الأحياء لالتقاط صورة، حلق الأطفال خلفه وبعد أن يتفحص الشخص صورته يلاحظ وجود

شيء مخيف به؛ا فيظل يلتفت حوله ويهرب مرتبكًا فتقف أرواح الأطفال ضاحكة ساخرة.

وجدتُ شبح ياسين يتأمل السيارات كعادته، ولكن عندما رآني عالقًا في الركوض المروري، اقترب مني وجلس بالسيارة قائلًا:

– وصلت لحاجة؟

– الدنيا اتعقدت خالص.

– بكرة تتحل وتقبض على اللي عملها.

– يا رب.

– أنا طلعت لبنتي في الحلم زي ما إنت علمتني فصحيتْ من النوم وكلمت كريم وسابته.

– طب الحمد الله.

– أنا مش عارف أشكرك إزاي.

– يا سيادة المايسترو أنا ما عملتش حاجة.

رنّ هاتفي، كانت أمي تتصل بي، فأخرستُ الرنين بينما قال ياسين:

– لو حابب تتكلم على انفراد أنا ممكن أمشي.

– لا، أنا مش فاضي أرد.

– ما إنت ماوراكش حاجة أهو. رد لاتكون والدتك عايزاك في حاجة ضرورية.

– لا مش عايزاني في حاجة.

– في مشاكل بينكم؟

– عادي.

– شكله مش عادي.. احكيلي، آدينا بنتسلى.

– أفضل نتسلى بحاجة غير مشاكلي العائلية.

– مش قصدي أتطفل عليك، بس إنت مش ضامن هتسمع صوت والدتك تاني ولا لأ.. نظرتُ له مستفهمًا فأكمل: أنا مغرم بالموسيقى. درست في إيطاليا وفرنسا وبقيت أستاذ في الكونسرفتوار واشتغلت في الأوبرا ولفيت العالم لحد ما قرَّبت من الأربعين ولسه مش متجوز. عمري ما فكرت في الجواز وتكوين أسرة والكلام الفارغ ده على أدَّ ما فكرت في إن قلبي يُدق.

– ودق؟

– دق في فينيسيا. اتعرفت على يسرا، كان عندها معرض رسم، هي فنانة تشكيلية وحد من صحابي عزمني على معرضها صدفة ومن ساعتها قلبي دق واتجوزتها وعشت معاها أحلى خمسة وعشرين سنة في عمري، ما أظنش إني ممكن أحب حد في الدنيا أدّها وشوف بقى على الحب ده كله، دبينا خناقة غريبة. كانت أول مرة نتخانق بالشكل ده لدرجة إني سِبتلها البيت ورُحت شقة بابا اللي في الزمالك. تاني يوم كان عندي بروفة في الأوبرا والدنيا كانت زحمة وأنا قاعد في العربية لقيت التليفون بيرن برقمها بس أنا كنت مقموص ومارضِتش أرد، عملت زي ما إنت عملت كده وقفلت الصوت وقبل ما أرجع الموبايل مكانه مُتّ.. لو كنت أعرف إن دي آخر فرصة عشان أسمع صوتها أكيد كنت رديت. إنت مش عارف أنهي كلمة هتبقى الكلمة الأخيرة ولا أنهي فرصة هتبقى آخر فرصة ليك.. العمر مش مضمون يا نوح.

بدأت السيارات تتحرك رويدًا رويدًا بينما أكمل ياسين بحزن:

– المضحك إني مش عارف سبب الخناقة، بس عارف إن يسرا شايلة ذنب إني مُتّ زعلان منها.

– طب كلمتها في الحلم وهوِّنت عليها؟

– حصل. صحيت فضلت تعيط، وأول ما البنات دخلوا عليها مسحت دموعها ومثلت إنها كويسة. هي دايمًا كده، تحس إن رجليها واجعاها فتدوس عليها أكتر، ضهرها يألمها فتشده أكتر، ضرسها يوجعها تمضغ عليها أكتر.. طول عمرها بتعاند الوجع عشان تفضل ضهرنا وسندنا. كداب اللي قالك إن الراجل هو عمود البيت. أنا مُتّ أهو بس البيت لِسَّه واقف على حيله لو كانت يسرا هي اللي ماتت كان البيت اتدمر.

– مش مظبوط. أنا لما والدي مات أمي اتجوزت وخدت أختي وعاشوا في بيت جوزها وأنا عِشت في بيت جدتي وبيت أبويا اتقفل ومن ساعتها وفي شرخ في العيلة مش عارفين نداريه.

– من الواضح إنك رافض جوزها.

– أكيد.

– إشمعنى؟ الرجالة بيدفنوا مراتتهم الصبح ويتجوزوا بالليل؟

– يعني لو يسرا اتجوزت إنت هتبقى مبسوط؟

– أنا ميت بس هي عايشة. مش المفروض إن موتي يدفنها تحت التراب معايا.

– والله إنت رومانسي وطعِم وحبُّوب وأنا مش كده.

- أكيد خطيبتك تعبانة معاك.

- خطيبة 'يه؟ هو أنا لاقي وقت أهرش في دماغي.

- لما قلبك يدق، هتلاقي وقت لكل حاجة.

- ده لما بقى..

- عمرك ما حبيت؟

- لأ حبيت، بس كان عندي تمن سنين ومن ساعتها وأنا بحلم بيها.

- صاحبتك في الكلاس ولا بنت الجيران؟

- شبح واحدة في جبل الموتى.

قصصتُ عليه حكايتي مع جبل الموتى، وركزتُ على الشابة البدوية ذات البشرة الخمرية والعينين الواسعتين التي مدت لي يدها بالليمونة ودلتني على طريق التواصل مع الموتى.

- بتحب عفريتة؟!

- روح مش عفريتة.

- طب وشُفتها تاني؟

- من خمس سنين كده رُحت جبل الموتى بس ماشُفتش أي حاجة، لا البدو الخايفين ولا المحارب الفارسي ولا الفرعون ولا هي نفسها.

- ماشكّتش قبل كده أن كل دي هلاوس سمعية وبصرية وإن ده مجرد عقلك الباطن؟

- عيل عنده تمن سنين هيبقى كل ده في عقله الباطن ليه؟ أنا كان أقصى طموحي وقتها إني أحل ألغاز المحقق كونان.

ضحك قائلًا: ومن ساعتها بقى شايف إنها فتاة أحلامك؟

– مش فتاة أحلامي على قد ما حسيت إنها ملاكي الحارس.. يمكن عشان كان حب طفولي وهي كانت.. كان فيها طيبة وابتسامة حنينة كده. ميكس غريب بين الرومانسية والأمومة.. أنا عرفت بنات كتير بس كان دايمًا في حاجة ناقصة.

– ما كلنا فينا حاجة ناقصة.

– بس اللي بيحب حد مش هيحس إن فيه حاجة ناقصة.. أقولك؟ أنا مقتنع إن البنت اللي هكمل معاها بقية حياتي هي اللي هقدر أقولها إني بشوف الأرواح من غير ما أخاف ومن غير ما تشوفني ملبوس زي أمي ولا مجنون زي أختي.

هز ياسين رأسه وقال بابتسامة دافئة:

– تفاءل، يا نوح يمكن القدر يفاجأك.

***

لا أتذكر أنني أرتحتُ لأحد الأشباح بهذا القدر من قبل.

بدأت روح ياسين تزور غرفتي وتجلس معي بالشرفة ليلًا، ولأول مرة أحزن لكون أحد الأطياف سيرحل عن الأرض ويتركني.

عندما علمت جدتي بوجود شبحه في منزلنا كادت تبكي تأثرًا، وحرصت على أن أوصل إليه رسائل إعجابها وتقديرها وإجلالها لموسيقاه، حتى إنها كانت تشغل معزوفاته طوال الوقت لتؤكد حبَّها الشديد له.

وبنهاية الأسبوع، لم يكن يتبقى سوى يومٍ واحدٍ لياسين بعالمنا، فغدًا سيتمم يومه الأربعين ثم يرحل.

- هروح فين؟

خلعتُ حذائي بغرفتي استعدادًا لأخذ قيلولة قصيرة قبل أن تعد جدتي من نزهتها مع صديقتها.

- ده السؤال الوحيد اللي مش لاقي له جواب.

- وبعد ما أمشي مش هعرف أشوف يسرا والبنات وتاني؟

صمتُ قليلًا حتى أجبته: بيقولوا إن الميت بيشوف الناس اللي بيحبهم في أي وقت لكن ماحدش أكد لي المعلومة دي بس بابا كان بيزورني كتير في أحلامي بعد ما مات. صحيح كان بيقول كلام مبهم وشكله ماكانش واضح لكن كنت بشوفه في الحلم.

- يبقى لازم أقولهم إني ماشي. أنا بحكي لهم عن كل حاجة، حتى عنك.

ضحكتُ قائلًا: تعرف إن دي أول مرة من بعد وفاة بابا وجدي أحِس إن فيه روح هتقطع بيَّ؟

- وإنت هتوحشني بس.. أنا قلقان على يسرا والبنات من بعدي.

- مراتك وبنتك الكبيرة مايتخافش عليهم، الصغيرة متهورة شوية بس أختها هتاخد بالها منها.

رنّ هاتفي فقلتُ لشبح ياسين: لحظة بس أرد أجبتُ قائلًا: في جديد يا قطز؟

- ماكبث يا نوح.. طلعنا ماشين في الطريق الغلط.

(3)

– أنا مش فاهم حاجة يا قطز.

– مسرحية ماكبث بتاعة شكسبير اللي خدناها في ثانوي و...

– مالها؟

– المسرحية كان فيها هدنة بين أسكتلندا والقوات الإنجليزية التابعة للملك هارولد هارفوت، تمام؟

– انجز يا قطز عشان أنا جعان ومش شايف قدامي.

– طيب، طيب. ماكبث قرَّر يخلص من القوات الإنجليزية، راح عمل نبيذ سام وشرَّب منه الجنود وكان مفعوله قوي لدرجة إنهم ماكانوش قادرين يقفوا على رجليهم وماتوا.

– فين الاكتشاف في اللي إنت بتقوله؟

– الاكتشاف إنهم ما ماتوش بسبب إن ماكبث حط لهم سمّ في النبيذ، النبيذ نفسه هو السم.

– ورحمة أبويا ما فاهم حاجة.

– فاكر لما فضلت أقولك إني متأكد إني سمعت كلمة بلادونا قبل كده؟ عشان كانت موجودة في مسرحية ماكبث. دي شجرة سامة بتطرح فاكهة بيسموها توت الشيطان عشان سامة، ماكبث بقى خَد التوت وعمل منه نبيذ وأطفال الشوارع ودكتور خيري كان محطوط لهم السم في عصير التوت. العصير ماكانش فيه سم، العصير نفسه هو السم. التوت هو المادة السامة يعني بدل ما كنا بندوَّر على مين اشترى سم من الصيدلية هـ...

– هندوَّر على مين اشترى التوت من الشجرة.

– أو مين زرع الشجرة.

– هي ممكن تتزرع في البيوت؟

– هي دي المعلومات اللي ناقصاني. محتاج منك تعدي على طنط فتون تسألها عن الشجرة دي وتعرف منها إيه شروط زراعتها ولو ينفع تتزرع في مصر والكلام ده.

ارتديتُ حذائي بحماس: ماشي، أنا نازل دلوقتي.

ألتفتُّ لشبح ياسين قائلًا: معلش، أنا لازم أنزل عشان جد جديد في القضية.

– وأنا هروح أشوف البنات.

***

استقبلتني السيدة فتون في منزلها بخمسة ساندويتشات من المربى التي أعجز عن مقاومتها.

أكلتُ الساندويتشات بنهمٍ وإني لقادر على التهام أضعافهم، فقد كانت المربى أشهى من كل مرة لدرجة أنني لعقتُ أصابعي بعد أن فرغتُ من الأكل.

ظلت فتون تشاهدني وأنا آكل بشهية مفتوحة وقد ابتسمت بحنانٍ، وعندما انتهيتُ سألتني:

– أجيب لك تاني يا حبيبي؟

– ده أنا هاخد البرطمان وأنا مروَّح.

– أنا عاملة لك كتير، هتاكل لحد ما تشبع.

ضحكتُ ثم شربتُ الماء بينما قالت: قُلت لي بقى عايز تسأل عن شجرة إيه؟

– البلادونا.

– اسمها بالعربي ست الحسن أو توت الشيطان عشان بتطرح توت طمعه مسكر بس سام جدًا وشكله بيجذب الأطفال عشان بيفتكروه بلاك بيري لكن لو كلوا منه خمس ولا ست حبات يموتوا في خلال ساعتين تلاتة وأكتر جزء سام في ست الحسن هو جذروها. مات بسمها الإمبراطور أغسطس والإمبراطور كلوديوس ولحد النهارده سم ست الحسن بيُتسخدَم في جرايم القتل.

– ليه بيسموها ست الحسن؟

– عشان الستات كانوا بيستخدموا لون التوت بتاعها في التجميل، بيعصروه بطريقة معينة وبيعملوا منه روج أو أحمر خدود.

- والشجرة دي بتتزرع في مصر؟

- موطنها الأصلي أوروبا، بس برضو بيزرعوها في شمال أفريقيا وغرب آسيا وبتحتاج لشمس قوية لمدة خمس أو ست ساعات في اليوم وتهوية ومش بتحتاج مَيَّه كتير.

على ذِكر المياه، شعرتُ بجفافٍ شديدٍ ورغبة قوية في شرب نهر النيل كله؛ فلم أترك كوب المياه الزجاجي من يدي فقالت السيدة فتون:

- أجيب لك مَياه تاني؟

- ياريت، أصل السكر بيعطَّشني جدًا.

- معلش، أنا كتَّرت السكر المرة دي في المربى عشان كنت حساها مُرة.

أحضرت لي دورقًا آخر من المياه بينما دوّنتُ كُلَّ المعلومات التي أملتها عليَّ.

- سهل تلاقي بذور الشجرة دي؟

- ممكن تجيبها من أي مشتل وتزرعها في الجنينة أو فوق السطوح.

بدأت عيني تحرقني من شدة النعاس حتى إن إضاءة المنزل آلمت مقلتي فأغلقتُ جفوني وفركتهم، فقالت السيدة فتون بقلق:

- مالك يا حبيبي؟

- عيني وجعاني من السهر.

- تحب تطلع تنام؟

- لا لا لا.. كملي.

- بدل ما أنا بصدعك كده تعالى معايا.

- على فين؟

- عندي حاجة هتفيدك أوي.

***

وجدتُ نفسي في سيارة فتون البيضاء متجهين إلى المقطم وقد زادت حرقة عيني وجفاف حلقي وصداع رأسي ورغبتي في النعاس.

ليتني لم أذهب معها واتجهتُ للفراش فأنا أكره عندما يتمكن منِّي الإرهاق ويبدأ رأسي يؤلمني بهذه الصورة الضارية.

وصلنا إلى منطقة لم أرها بالمقطم من قبل تشبه مدينة الأشباح.

ليس وكأن بها أشباحًا بل لأنها خالية ومعظم المباني بها لم ينتهِ إنشاؤها بَعدُ، عدا فيلتين متباعدتين اقتربنا من إحداهما لا حارس عليها، ولكن السيدة فتون أخرجت المفتاح وفتحت بوابة الفيلا الصغيرة ذات الحديقة النضرة والعشب الأخضر فقلتُ محاولًا أن أُبعِد الإرهاق عن صوتي: بيت مين ده؟

- دي الفيلا اللي عُمَر كان هيتجوز فيها.

عمر ابن فتون كان أحد تلامذة أمي بالقصر العيني، ولكنه توفى قبل زفافه بشهر.

وقفنا أمام نبتة شجرية ارتفاعها متر ونصف، لها أوراق بيضاوية كبيرة

وأزهار بنفسجية شكلها يشبه الجرس وتتدلى من أغصانها الرفيعة ثمار في حجم الطماطم الكرزية ولكنها سوداء لامعة.

بدأتُ أرتجف، أفهم أنني مرهقٌ ومتعبٌ من قلة النوم والأكل ولكن ليس إلى الدرجة التي تجعل نبضات قلبي تزداد ورؤيتي تهتز وعرقي يتصبب كمن أصابته حمى.

وضعت فتون يدها على كتفي برفق قائلة:

- إنت كويس يا نوح؟

حاولت أن أتماسك قائلًا: أيوه أيوه. أشرتُ إلى الشجرة: هي دي ست الحسن؟

قربتُ يدي نحوها ولكنها أبعدتها قائلة:

- أوعي تلمسها من غير جوانتي، سمها قوي وممكن يئذي جلدك.

بدأتُ ألهث مع ازدياد سرعة نبضات قلبي وقلتُ متشبثًا بهدوئي الذي أخذ يتلاشى:

- طب.. مدام هي سامة أوي كده، إنتي زرعاها هنا ليه؟

ضحكت وقالت بنبرة لم أعتدها منها:

- نوح حبيبي، إنت نسيت ابني مات إزاي؟

(4)

كاد قلبي أن ينفذ من صدري بينما صار حلقي كالصحراء الجرداء وابتلت ملابسي من العرق وبدأت أحك جلدي كله وأسعل بقوة ورأسي يترنح وتوازني يختل كمن شرب برميلًا من الخمر.

تجلتْ مظاهر تعبي الذي لم يعد قلة النوم والإرهاق العادي مبررًا له وعندما لم أعد قادرًا على الوقوف على ساقي، أسندتني السيدة فتون وأدخلتني إلى الفيلا.

كانت الفيلا مفروشة بالكامل كأن هناك مَن يقطن بها، قالت لي جدتي من قبل أن بعد وفاة عمر اعتادت فتون الذهاب إلى الفيلا لتنظيفها والمكوث بين الأثاث الذي اشترته مع وحيدها.

وضعتني على الأريكة المريحة بينما جلست على الكرسي المقابل واضعة ساق فوق الأخرى، وقالت بصوتها الحنون ولكن بنبرة مريبة:

- زي النهارده من سنة، عمر كان راجع من العيادة الساعة تلاتة الفجر، طلع عليه اتنين من أطفال الشوارع وكانوا عايزين يسرقوه ولما قاوم، طعنوه بمطوة ومات.

اللعنة! أتمنى ألا يكون شكي في محله.

– أنا اتطلقت وعُمَر عنده اتناشر سنة، ماطلعتش من الدنيا غير بيه فلما جالي خبر إنه في المستشفى كنت هتجنن. اتصلت بجرَّاح صديقي من أيام الطفولة، هو الدكتور الوحيد اللي بثق فيه واستنجدت بيه عشان يلحق عُمَر بس فشل.. خذلني وما أنقذش ابني من الموت.

حاربتُ الشلل الذي بدأ يصيب أطرافي وقلتُ لها:

– خيري؟ الدكتور خيري؟

هزت رأسها باسمة: طول عمري بقول عليك ذكي عشان كده لما قررت أجيب حق ابني، لجأت لك عشان تلاقي القاتل بس زيك زي خيري. خذلتني وسِبْت اللي قتل ابني حر طليق.

وودتُ أن أصيح بها وأخبرها أنني أخذتُ أوصاف القاتل من شبح ابنها بعد مقتله وأنني بحثتُ عن قاتله بكل مكان ولكني لم أجده؛ فأنا لا أعرف له اسمًا ولا دلالة، وأطفال الشوارع يحمون بعضهم البعض فبحثتُ مستخدمًا كل حيلي ولكني لم أجد الجاني وكأنه تبخَّر وقد كنتُ "ملازم ثاني" آنذاك وصلاح هو النقيب المسئول عن القضية.. صلاح!

ليتني ركزتُ في جملته عندما كان بالمكتب راضيًا عن تسمم أطفال الشوارع وقد قال لي

"إيه، يا سي نوح. نسيت جارك اللي عيل من دول ثبته وغزه"

لِمَ استهرتُ بكلامه ونسيتُ أن ذاك الجار هو عُمر ابن فتون؟! فتون

التي تملك محلاً للورود ومشتلاً وخبيرة بالنباتات ولديها دافع الانتقام، ومن السهل حصولها على نبتة ست الحسن.

نهضتْ من مقعدها مع ازدياد رعشتي، لم ألاحظ من قبل أنه إذا نظرتُ للسيدة فتون من الخلف ستبدو كرجل بقامتها الطويلة وشعرها القصير وجسدها المسطح.

لو ارتدت جلبابًا أبيضَ ووضعت قبعة على رأسها وأخفت عينيها الأنثويتين بنظارة شمس كبيرة وتمنعت عن الكلام حتى لا يُسمَع صوتها الناعم، سيظنها الناس رجلًا.

فتون هي من سممت أطفال الشوارع والجراح خيري شلهوب.. وأنا!

ربعت ذراعيها قائلة بسخط ممزوج بالحسرة:

– ابني كان بيعالج أولاد الشوارع بالمجان في عيادته، تعرف كام مرة المستشفيات رفضت تدخَّل طفل مريض من الجرابيع دول وهو أصر يدخلهم على مسئوليته الشخصية أو حتى يدفع لهم التكاليف؟ يقوم الكلاب دول يقتلوه في الفجر ويسيبوه ينزف في الشارع؟

حاولتُ النهوض ولكني لم أشعر بساقي وأصابني غثيانٌ شديدٌ، ولكن فتون لم تتوقف عن الكلام.

– أنا اعتبرت خيري زي أخويا واستنجدت بيه لكنه اتأخر وقال إيه خرج من العمليات يقولي أنا عملت اللي عليَّ –ضحكت متهكمة ثم بدأت تصيح نحوي–: وإنت كنت زي ابني، فضلت أقول عليك ذكي

وشجاع ويوم ما اعتمدت عليك طلعت زيك زي كل اللي في المجتمع القذر ده، أغبيا ومتقاعسين وناكرين للجميل.

رنّ هاتفي فحاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أمد يدي لآخذه ولكنها أسرعت وأخرجته من جيبي وعندما شددتُ معصمها دفعت يدي بقوة فسقطتُ أرضًا.

أجابت الهاتف بنبرتها الهادئة: أيوه يا إحسان.. نوح نسي موبايله عندي في المحل.. إبقي قولي له يجي ياخده لما يخلّص شغل.. سلام يا حبيبي.

حاولتُ أن أصرخ ولكني لم أجد صوتي، حالة من الخدر المختلط بالحمى والغثيان سيطرت على أوصالي وما زال قلبي يركل صدري هلعًا.

الأمر واضح:

أحد أطفال الشوارع طعن عمر ثم فشل خيري في إنقاذ حياته؛ فمات عمر.

لجأتْ فتون إليَّ فخذلتها كما خذلها صديقها الجراح.

مُحمَّلة بالكراهية وشاعرة بالظلم، ظلت عامًا كاملاً تتظاهر بكونها الأم الراضية بقضاء الله.

لم تصرخ ولم تبكِ ولم تُظهر أيَّ نوعٍ من السخط أو الاعتراض على أمر الله، بل ظلت توزع الورود والعصائر والمحبة على الجميع؛ فجعلتنا نظن أنها تخطت أمر وفاة ابنها بينما في الواقع كانت تود أن تبعد عن نفسها الشبهات فظلت متماسكة تحضر خطتها سرًا فللظلم والعدالة البطيئة التأثير ذاته، خلق إنسان يكفر بالعدل ويؤمن بالثأر الفردي.

بدأتْ بخيري. دخلت منزله باسمة الثغر بحجة مواساته وتصبيره على فراق زوجته وأهدته زجاجة العصير. سكبت له كوبًا وظلت معه ساعتين أو ثلاث حتى ظهرت عليه الأعراض فنقلته إلى فراشه ليستريح ثم أخذت بطاقته الشخصية والمفتاح حتى لا يحاول التوجه إلى المشفى.

استأجرت سيارة ببطاقة خيرى الميت ثم نفَّذت الجزء الثاني من خطتها ووزعت عصير توت الشيطان على أطفال الشوارع بغرض الانتقام العشوائي ممن كانوا سببًا في موت ابنها.

والآن أتى الجزء الثالث من خطتها وهو قتلي أنا.

اختارت شجرة ست الحسن لسهولة زراعتها وتوزيع سمها، فتوتها حلو المذاق لا رائحة له ويمكن للضحية أن تتناوله كتوت طازج أو عصير أو في حالتي أنا، مربى التوت.

حاولتُ أن أزحف على الأرضية الباردة صوب الباب، ولكنها أغلقت هاتفي ووضعته بجيبها ثم وقفت تضحك ساخرة من محاولتي البائسة للفرار من الموت قائلة:

– ماتحاولش، كلها ساعة ولا اتنين وتموت. ماحدش هيلحقك زي ما مالحقوش ابني.

استمر زحفي حتى منتصف الصالة وقد بدأتُ أشعر بتشنجات غريبة.

سحبت فتون حقيبتها وأخرجت المفتاح قائلة:

– 10 حبات من توت ست الحسن قادرين على قتل إنسان بالغ.. تفتكر ساندوتشات المربي اللي كلتها فيها كام حباية؟

***

كنتُ أعلم أنني سأموت قبل أن يشيب شعري وتجد التجاعيد طريقها إلى وجهي، ولكني لم أتصور يومًا أن السيدة فتون التي علمتني في طفولتي أسماءَ الورود ومعانيها هي من ستقتلني.

مددتُ يدي صوب الباب ولكنها ركلتني جانبًا وخرجت من الفيلا وأوصدت البوابة.

بقيتُ مستلقيًا على ظهري أرتعش وأعرق وتدريجيًا، صارت الرؤية ضبابية إلا أنني سمعتُ صوتًا: نوح، مالك؟

لم أرَه بوضوح ولكني كنتُ متأكدًا من أنه شبح ياسين الذي صاح فزعًا:

- إيه اللي حصلَّك؟ مين عمل فيك كده؟

خرج صوتي واهنًا بالكاد يُسمع:

- سم.. كلم الإسعاف.. بموت.

وقف حائرًا وأخذ يدور في المكان عاجزًا عن التقاط أي شيء فقال مرعوبًا:

- مش عارف، مش عارف أمسك حاجة.. أعمل إيه؟

هاجمتني نوبة عنيفة من التشجنات وصرتُ أرى أضواءً عجيبة وأسمع أصواتًا متداخلة ولكن صياح ياسين الهلع كان واضحًا:

- أعمل إيه، يا نوح؟ ما تموتش، يا ابني أنا...

خفتت الأضواء واختفت الأصوات وساد السكون المظلم.

علَّها النهاية...

(5)

هل يحلم الموتى؟

لا أظن ذلك، الأشباح لا ينامون فكيف سيحلمون؟

إذًا كيف أحلم الآن بالبدوية صاحبة الليمونة الصفراء واقفة في منتصف كهف جبل الموتى، ولكنها بمفردها بلا أية أرواح أخرى.

تنظر صوبي مبتسمة وشعرها الأسود منسدلًا على كتفيها وتبتسم إليَّ بشفتيها المكتنزتين وعينيها الواسعتين وتشير إليَّ أن أقترب.

ذهبتُ صوبها محلقًا كالطيف الهائم، وقبل أن ألمس يدها وآخذ الليمونة شعرتُ بيد على كتفي فتغيَّر المشهد واختفى الكهف والبدوية والليمونة ووجدتُ نفسي بغرفة بيضاء كئيبة ذات مصابيح نيون خافتة وسرير حديدي رفيع ولا يقف بها غيري أنا وياسين الذي بدا مرتاح البال وباسم الثغر قائلًا: رعبتني عليك يا أخي.

لم أجبه، كنتُ مندهشًا ومضطربًا.

وددتُ أن أسأله أين نحن وماذا حل بي، ولكني شعرتُ أن لساني مربوطٌ بينما تكلم ياسين بطلاقة:

– أنا كنت جاي أودعك بس الست المجنونة دي سممتك. ماتخافش كله بقى تمام لكن...

سمعنا صوت دقة ساعة قوي خرق أذني فنظرتُ حولي ولم أجد أيَّة ساعات ولكن ياسين قال متعجلًا: الأربعين يوم خلصوا، دي ساعتي.. أنا بعتِّلك دليلة. خلي بالك منها يا نوح.

بدأ جسده يتلاشى وهالته تتبدد ثم سطع ضوءٌ قويٌّ كاد يُعميني فانتفضتُ مستيقظًا.

***

الرؤية ضبابية ولكني تبينتُ ضوءًا مرتعشًا بالسقف، وبالرغم من ألم رأسي الشديد والخدر المهيمن على أطرافي إلا أنني سمعتُ أصوات كُلّ من حولي بوضوح.

– نوح.. نوح صحي يا طنط.

كان هذا صوت قطز يليه بكاء شديد ثم يدان متعرقتان تمسكان بوجهي ثم تنهال عليَّ بالقبلات:

– حبيبي يا ابني.. حمد الله على سلامتك.

كانت هذه أمي بصوتها العريض ويديها السمينتين وشخشخة سلاسلها الذهبية ذات الخرز الأزرق والآيات القرآنية ومن بعدها صوت جدتي الرفيع المُحمَّل بدموع مكبوتة تقول بنبرة آمرة:

– ما تطبقيش على نفسه كده، سبيه يرتاح.

توالت الأصوات. جميعهم حولي: نادية وطارق وأمي وجدتي وقطز وقد احتجتُ بضع دقائق لتتضح الرؤية.

كانت جدتي ممسكة بالمصحف ووالدتي تجلس بملابسها المحتشمة وحجابها الطويل بجواري لتحيطني بذراعيها ونادية عند طرف السرير وطارق وقطز يقفان على يميني بطمأنينة.

بصوتٍ مرتعش لكن مسموع سألتُ قطز:

- مسكتوها؟

صاحت أمي: ده أنا كلت فتون دي بسناني، لولا قطز حاشني عنها كنت قطعتها في القسم سحبت يدي وظلت تقبِّلها بهيسترية: سلامتك يا حبيبي.. إن شالله أنا يا قلبي.

- بعد الشر عليكي يا ماما.

قال قطز: حد يصدق إن طنط فتون الملاك دي تعمل كده؟

صاحت أمي: ملاك؟ إلهي وإنت جاهي تسخطها قردة عشان تبقى عِبرة للخلق.

سألتُ قطز: قبضتوا عليها؟

- لما لقيت الشجرة المسمومة في فيلا عُمَر وبعد شوية ربط ومراجعة للتفاصيل فهمت إن هي اللي وراها وأول ما وجِّهناها بتُهَمها فضلِت تزعق وتقول لازم أطهَّر المجتمع من المتقاعسين اللي زيكم.. مخها لسع وغالبًا هتتحول على الخانكة.

صاحت أمي: ربنا ياخدها ويولع فيها ويشفي غليلي منها و...

قاطعتها جدتي بنبرتها المترفعة:

– وطي صوتك الهمجي ده. التفتت للباقية قائلة بعجرفة: يلا كلكم بره عشان حفيدي يرتاح.

خرجوا جميعًا إلا قطز فاقتربت جدتي وقبَّلت جبيني قائلة:

– سلامتك يا روحي.

– الله يسلمك يا تيتة.

التفتَتْ لقطز قائلة: وإنت يا طويل التيلة اتفضل قدامي.

همَّ بالخروج ولكني استوقفته قائلًا: إستنى يا قطز عايزك.

قالت جدتي: عايزه في إيه؟ مش وقته، ارتاح.

– كلمتين بس يا تيتة وخلاص.

زفرتْ معترضة ثم غادرت صافعة الباب خلفها فقال قطز:

– فاتك نُص عمرك، جدتك ومامتك اتخانقوا وكانوا هيموتوا بعض.

– وإيه الجديد! ما هم مابيعرفوش يقعدوا خمس دقايق مع بعض، سيبك.. أنا جيت هنا إزاي؟

– بالإسعاف.

– ما أنا فاهم يا غبي. مين اللي كلم الإسعاف؟

– آآآآآآه، نسيت أقولك قال غامزًا: مُزة، يا عم اتصلت بالإسعاف وقالت لهم العنوان وفضلِت موجودة طول الوقت وجدتك عمالة تزن وتقولي مين دي هو نوح مرتبط من ورايا وحلفت لها مِية يمين إني ما أعرفهاش ماصدقتنيش. بتصاحب من ورايا يا واطي؟

– مُزة مين يا قطز، إنت هتهزر؟

– أقسم بالله واحدة زي القمر بس مارضيتش تقولي هي عرفت إنك مسموم في الفيلا إزاي و...

دخلت جدتي بلا استئذان وبدت منزعجة، فجلست بجواري قائلة:

– بقيت كويس؟

– في إيه يا تيتة؟

– فيه إنك ندل، مين البنت اللي بره دي؟

قال قطز: دي البنت اللي بقولك عليها. قالت إنها هتيجي تطمن عليك النهارده تكون فُقت.

قالت جدتي منفعلة: أيوه بقى مين دي؟ ها؟ إنت بتعرف بنات يا نوح؟

– أومال هعرف سحالي يا تيتة؟ ما تصلي على النبي.

– عليه أفضل الصلاة والسلام، بس ما أقعدش أنا أربي وتيجي واحدة تاخدك على الجاهز.

قال قطز ببرود: هدي أعصابك يا تيتة.

صاحت به: أنا بتعصب لما الواد ده يقولي، يا تيتة. أنا مش جدتك يا ناطحة السحاب إنت.

– الله يسامحك يا تيتة.

–!Quelle stupidité

– أنا متأكد إنك بتشتميني بس معلش إنتي برضو جدتي.

– أووووف. زفرت وقالت لي: إنت هتقولي مين البنت اللي لازقة لنا من إمبارح دي ولا لأ؟

– أشوفها. أشوفها بس عشان أعرف هي مين وأرد على معاليكي.

– مش هدخَّلها غير لما تقولي هي مين.

قال قطز: مالكيش حق تسبيها واقفة بره يا تيتة.

اتجه قطز صوب الباب وفتحه بحماس ونادي الفتاة لتدخل.

لم أعد أفهم، أهذا حلمٌ أم أنني مازلتُ تحت تأثير هلاوس السم؟

من باب غرفتي بالمشفى، دخلت البدوية التي كانت بمقابر جبل الموتى.

عيناها الكحيلتان وشفتاها الحمراوان وأنفها الدقيق وبشرتها الخمرية ووجهها المستدير.

كانت هي بفرق أن شعرها لم يكن طويلًا حتى خصرها كما كانت بجبل موتى بل قصيرًا كالفتيان وملابسها تواكب العصر الحالي، جينز أسود وحذاء رياضي وقميص حريري وسترة جلدية سوداء وعلى معصمها وشمٌ لمفتاح صول الموسيقى وتضع قرطًا ذهبيًّا به حجر فيروز يتماشى مع خاتمها وسلسلتها الرقيقة.

دخلت الغرفة حاملة باقة من الورود الحمراء واقتربت منِّي على استحياء بينما قال لها قطز:

– اتفضلي، اتفضلي.

وكزتني جدتي قائلة: شُفتها؟ مين دي بقى؟

لم أتوقف عن الحملقة بها، لقد كانت البدوية نفسها، ولكن بحلة

جديدة، لولا أن قطز وجدتي حولي ويريانها مثلما أراها لظننتها روحًا أو لأعتبرتُ نفسي أهذي.

وقفتْ ذات الشعر القصير التي ترتدي الأسود من رأسها حتى أخمصها عند طرف السرير فانعكست أشعة الشمس على وجهها البريء وملامحها الدقيقة، وقالت بصوتها الذي سكن أذني منذ كنتُ بالثامنة من عمري: حمد الله على سلامتك.

مدت يدها بباقة الورود، ولكن من فرط دهشتي لم آخذها منها، فرفع قطز الحرج وأخذ الباقة قائلًا:

– مافيش داعي تكلفي نفسك.

ظلت جدتي ترمقها بتربص غير مُبرَّر بينما سحب قطز كرسيًّا وضعه بجوار سريري حتى تجلس عليه ثم قال لجدتي التي تشبثتْ بذراعي وكأنها تعلن عن ملكيتها الخاصة:

– يلا، يا تيتة عشان...

– عشان إيه؟ أنا قاعدة جنب حفيدي.

– ما إنتي بقالك عشرين سنة قاعدة جانبه، إدي له فرصة يتنفس.

بصعوبة شديدة، سحبها من يدها فخرجت وهي تهمس بصوتٍ كالفحيح:

– مين دي؟ مين دي، يا نوح؟

خرجا ولم يعد بالغرفة غيري أنا والضيفة غير المتوقعة.

ظلت تنظر حولها وتتأمل الأرضية في خجلٍ وهي تداعب خواتمها حتى قالت بتردُّد:

- إنت بقى نوح؟

سألتها بلا تفكير: إنتي البدوية بتاعة جبل الموتى؟

قطبت حاجبيها بابتسامة فضولية:

- جبل الموتى؟!

- إنتي اللي إدتيني اللمونة؟

- لمونة؟! أنا مش فاهمة حاجة.

- إنتي اللي كلمتي الإسعاف؟

- أيوه.. أصل هزت رأسها بتوتر: لو حكيت لك مش هتصدقني.

- أنا هصدق أي حاجة هتقوليها.

بدأت تحكي بتردد وبكلمات متقطعة

- من حوالي أربعين يوم بابي مات لكن من إسبوع.. بدأت أحلم بيه وكان.. كان بيحكي لي...

اضطربت ونظرت للأرض قائلة: بيحكي لي عنك.

- إنتي بنت ياسين الجارحي؟

اندهشَتْ واضطربت وتطلب الأمر بضعة ثواني حتى وجدت ما تقوله

- إنت.. إنت تعرف بابي، صح؟ أصل.. هو قالي إنك بتشوفه، بتشوفه وهو ميت. حكى لي إنك بتشوف الأرواح وإنك معاه على طول وعلمته إزاي يطلع لنا في الأحلام وإمبارح وأنا نايمة حلمت بيه مرتين، الأولى قالي فيها إن النهارده آخر يوم ليه وإنك قُلت له إن روحه هتنتقل لعالم

تاني وبعدها مشي وقالي هيروح يودعك بس بعدها ظهر لي تاني وكان خايف وقالي إنك اتسممت في فيلا في المقطم وإني لازم أكلم الإسعاف فورًا عشان هو مش قادر ينقذك وقالي "اصحي حالًا وانقذي نوح".. صحيت من النوم وبلغت الإسعاف من غير ما أفكر وماصدقتش إنهم فعلًا لقوك، وإن كل ده حقيقي مش أحلام وجيت المستشفى عشان أتأكد لقيتك زي ما بابي كان بيوصفك بالظبط و...

لم أنزل عيني عنها وهي تتكلم مرتبكة وقد تعرقت يداها واحمرت وجنتاها.

أيمكن أن يكن الكون بهذه الدقة والعشوائية في آنٍ واحدٍ؟!

أرى بعمر الثامنة روح بدوية حسناء تعلمني كيفية التواصل مع عالم الأطياف، وبعدها أقابل شبح مايسترو قلقًا على ابنته فأعلمه كيفية الظهور بأحلام الأحياء فيظل يقص لابنته بمنامها عنِّي وعن تواصلي مع عالم الأشباح وعندما أتعرض للموت يظهر بحلم ابنته ويجعلها تتصل بالإسعاف لتنقذ حياتي فتزورني بالمشفى وأكتشف أنها الفتاة نفسها التي أغرمتُ بها طفلًا؟!

قالت متوترة: إنت فاكرني مجنونة، صح؟ أكيد كلامي مش منطقي بس مش كل حاجة في الدنيا منطقية وأنا.. أنا بس كنت عايزة أتأكد إني مش بهلوس عشان أنا متأكدة إن اللي كنت بشوفه ده كان بابي وكنا بنتكلم بجد مش مجرد أحلام وتخاريف و...

- إنتي اسمك إيه؟

اضطربت من سؤالي الذي لا صلة له بما ترويه فقالت خجلة:

- دليلة.

عندما قال ياسين في ظهوره الأخير بحلمي قبل أن أستيقظ بالمشفى: "أنا بعتِّلك دليلة. خلي بالك منها يا نوح."

كان يعني دليلة ابنته البكرية التي منعها ظهوره لها بالأحلام من التزوج من خطيبها الخائن.

لو لم أحل قضية طه عبد اللطيف، لما كلفني اللواء رشوان بقضية تسمم الأطفال ولما قابلت شبح ياسين ولو لم أعلِّمه الظهور بالأحلام لما منع ابنته من الزواج.. ولو لم تسممني فتون لما قابلتُ دليلة ولما بقيتُ على قيد الحياة.

تلك التفاصيل المتسلسلة التي نغفل عنها أو نقوم بها بلا تركيز، هي جزءٌ من خطة كونية كبيرة دبرها الخالق دون أن ندري، كل ذرة بهذا الكون لها تأثيرٌ لا ندركه.

منقذتي تدعى دليلة.

ولسنوات طويلة كانت بالفعل دليلتي...

***

شُكر خاص لكل من تكرَّم بوقته وعِلمه لإثراء هذا العمل

عمر بولندي

ندى سليم

رحاب سعدي

كاري ميريل

رايات وودوارد

ويتني لاستر

شارون ميليك

رضا محمد

محمد عصمت